

1

سلسلة من التفسير الأثري

نور النبأ

في تفسير سورة الإخلاص

والفلق والناس

تأليف

الشيخ العلامة المحدث

فوزي بن عبد الله بن محمد الحميدي الأثري

حفظه الله وسامعاه

سلسلة من التفسير الكوني (1)

نُورُ الذِّبْرِاسِ

فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ
وَالْفَلَقِ وَالنَّاسِ

حُقوقُ الطبعِ مَحفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦



مكتبة

أهل الحديث

مملكة البحرين - قلالي

التويتر: ahel_alhadeeth@

البريد: ahel.alhadeeth@gmail.com

نُورُ الذُّبُرِ

فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ

وَالْفَلَقِ وَالنَّاسِ

تَأَلِيفُ

الشيخ العلامة المحدث

فوزي بن عبد الله بن محمد الحميدي الأثري

حَفِظَهُ اللَّهُ وَرَعَاهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آلُ

عِمْرَانَ: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاءُ: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَابُ: ٧٠-
٧١].

أَمَّا بَعْدُ؛

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ
فِي النَّارِ.

* فَيَتَقَطُّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لِمَا يَرَى مِنْ مُعَانَاةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ^(١) فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَإِنَّ أَهَمَّ أَسْبَابِ مَا حَلَّ بِهَا مِنْ ذُلٍّ وَصَغَارٍ، بَعْدَهَا عَنْ كِتَابِ رَبِّهَا جَلَّ جَلَالُهُ، وَإِنَّ أَقْوَى الطُّرُقِ لِإِخْرَاجِهَا عَمَّا هِيَ فِيهِ وَأَوْثَقَ الْوَسَائِلِ لِرَفْعِ شَأْنِهَا، وَأَضْمَنَ الْأَسْبَابِ لِإِعَادَةِ مَجْدِهَا وَكَرَامَتِهَا، إِعَادَتُهَا إِلَى كِتَابِ رَبِّهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تِلَاوَةً وَتَعَلُّمًا، وَتَعْلِيمًا وَتَدَبُّرًا، وَإِيمَانًا وَعَمَلًا، وَتَبْلِيغًا.

* وَقَدْ أَخْبَرَ بِهَذَا مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ النَّاطِقُ بِالْوَحْيِ صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ^(٢).

فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)^(٣).

* وَيَشْتَمِلُ هَذَا الْكِتَابُ الْعَزِيزُ عَلَى سُورٍ وَآيَاتٍ كَثِيرَةٍ عَظِيمَةٍ، وَلَهَا فَضَائِلٌ كَمَا بَيَّنَّتِ السُّنَّةُ ... وَأَجَلُّهَا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ وَالْفَلَقِ وَالنَّاسِ ... فَلَا هَيْمَامَ بِهَا تَفْسِيرًا وَقِرَاءَةً ... وَتَعَلُّمًا وَتَعْلِيمًا ... وَتَدَبُّرًا وَتَدَارُسًا ... وَإِيمَانًا وَعَمَلًا أَوْجِبُ ... وَالتَّمَسُّكُ بِهَا أَلْزَمُ، وَالِإِعْتِصَامُ بِهَا أَوْكَدُ إِنْ رَغِبَتِ الْأُمَّةُ فِي النَّجَاةِ عَمَّا هِيَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاءِ، وَفِي نَيْلِ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ فِي الدَّارَيْنِ.

(١)، وَهِيَ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ، وَهِيَ الْمُتَمَثِّلَةُ الْآنَ فِي الْجَمَاعَاتِ الْحِزْبِيَّةِ.

* وَقَدْ نَجَحَتْ أُمَّةُ الْإِجَابَةِ بِمَعْرِفَتِهَا لِكِتَابِ رَبِّهَا سُبْحَانَهُ.

(٢) انظُرْ «فُضِّلَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَتَفْسِيرُهَا» لِلدُّكْتُورِ فَضْلِ الْإِلَهِيِّ (ص ٥).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ١ ص ٥٥٩) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْدَعَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فِي كِتَابِهِ لِعِظَمِهَا، وَلِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْوَاضِحَةِ، وَعِظَمِ تِلْكَ السُّورَةِ وَفَضْلِهَا وَكَثْرَةَ فَوَائِدِهَا ... مِمَّا يُكْسِبُ الْقَارِئَ عَقِيدَةً رَاسِخَةً فِي إِيْمَانِهِ بِرَبِّهِ، وَتَزْيِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَوَصْفِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُعْرَفُ بِهِ سِرُّ تَسْمِيَةِ السُّورَةِ بِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وَمَعْنَى كَوْنِهَا «تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(١) ... وَأَنَّ حُبَّهَا يُوجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ^(٢).

* فَقَدْ تَصَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْعَظِيمَةُ نَفْيِ نَوْعَيْنِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.
أَحَدُهُمَا: الْمُمَاتَلَةُ. وَدَلَّ عَلَى نَفْيِهَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» [الْإِخْلَاصُ: ٤]، مَعَ دَلَالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، [الْإِخْلَاصُ: ١]، عَلَى ذَلِكَ. لِأَنَّ أَحَدِيَّتَهُ تَقْتَضِي أَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ بِذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ فَلَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ.
وَالثَّانِي: نَفْيِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَقَدْ نَفَى مِنْهَا التَّوَلَّدَ مِنَ الطَّرْفَيْنِ.
* وَتَصَمَّنَتْ إِثْبَاتَ جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِإِثْبَاتِ الْأَحَدِيَّةِ، فَالصَّمَدِيَّةُ الْكَمَالُ الْمُنَافِي لِلنَّقَائِصِ، وَالْأَحَدِيَّةُ تُثَبِّتُ الْإِنْفِرَادَ بِذَلِكَ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٩ ص ٥٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» تَعْلِيْقًا (ج ٢ ص ٥٥)، وَوَصَلَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (٢٩٠١) مِنْ حَدِيثِ

أَنْسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انْظُرْ: «تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ» لِابْنِ رَجَبٍ (ص ٩٥).

* وَإِيضاً حُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِسُورَةِ الْفَلَقِ، وَمَا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَأْيِيدٍ وَنَصْرٍ عَلَى الْحَاسِدِينَ وَالسَّحَرَةَ وَالْحَاقِدِينَ ... وَأَمْرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ بِحِفْظِهَا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى عِدَّةٍ مَعَانٍ عَظِيمَةٍ، وَمَقَاصِدَ سَامِيَةٍ كَرِيمَةٍ...

فَهَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ تَضَمَّنَتْ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

أَحَدِهَا: شَرُّ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَهَا شَرٌّ عُمُومًا.

الثَّانِي: شَرُّ الْعَاسِقِ إِذَا وَقَبَ.

الثَّالِثُ: شَرُّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ.

الرَّابِعُ: شَرُّ الْحَاسِدِ إِذَا حَسَدَ^(١).

قُلْتُ: وَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ.

* وَإِيضاً حُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَيْضًا لِسُورَةِ النَّاسِ، وَمَا حَصَلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَأْيِيدٍ وَنَصْرٍ عَلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ... وَأَمْرُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ بِحِفْظِهَا... لِمَا لَهَا مِنْ أَثَرٍ فِي النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ...

* فَهَذِهِ السُّورَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْإِسْتِعَاذَةِ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الذُّنُوبِ

وَالْمَعَاصِي كُلِّهَا، وَهُوَ الشَّرُّ الدَّاخِلُ فِي الْإِنْسَانِ، الَّذِي هُوَ مَنْشَأُ الْعُقُوبَاتِ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢).

(١) انظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٣٨٢)

(٢) انظر: المصنوع السابق (ج ٥ ص ٤٤٢).

* فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَاتٌ ظَاهِرَةٌ لِلدَّلَالَةِ، وَاضِحَةٌ الْمَعْنَى بِحَيْثُ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، بَلْ إِنَّ النَّاطِرَ فِيهَا، وَالْمُتَدَبِّرَ لَهَا لِيَقِفَ مُتَسَائِلًا عَنْ حِكْمَةِ إِظْهَارِ مَعْنَاهَا إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْوُضُوحِ، وَفِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ أُخْرَى تَذَكِّرُ قَضِيَّةً لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا اثْنَانِ، بَلْ هِيَ أَمْرٌ بَدَهِيٌّ يُدْرِكُهُ الْإِنْسَانُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ^(١).

* فَتَشْتَمِلُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعَظِيمَةِ وَالْفَرَائِدِ النَّافِعَةِ مِنْ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَالْفَلَقِ وَالنَّاسِ الَّتِي لَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا طَالِبُ عِلْمٍ، وَقَدْ حَرَصْتُ فِيهَا أَنْ تَكُونَ سَهْلَةً الْأَسْلُوبِ، وَاضِحَةً فِي مَعْنَاهَا، مُوجِزَةً بَعِيدَةً عَنْ بَسْطِ خِلَافِ الْمُفَسِّرِينَ، وَاكْتَفَيْتُ بِمَا تَرَجَّحَ لِي مِنْ كَلَامِهِمْ.

* وَإِنِّي أَمَلُ مِنْ كُلِّ مُطَّلِعٍ عَلَيْهَا أَلَّا يَحْرِمَنِي مِنْ دَعْوَةٍ وَتَوْجِيهِ، أَمَّا الدَّعْوَةُ فَلَهَا مِثْلُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَّا التَّوْجِيهُ فَهُوَ حَقٌّ عَلَيْهِ، وَالْمُسْلِمُ مِرَاةٌ أَحِبِّهِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى أَسْأَلُ أَنْ يَكُونَ عَمَلِي هَذَا خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي الطَّاعَاتِ الَّتِي لَهَا رُجْحَانٌ فِي مِيزَانِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

كَتَبَهُ

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَثَرِيِّ

(١) انظر: «البدعيَّات في الحزب الأول من القرآن الكريم» للرومي (ص ٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعُ آيَاتٍ^(١)

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

مَعْنَى غَرِيبٍ كَلِمَاتِ الْآيَاتِ:

(١) اللَّهُ: الْإِلَهُ، وَإِلَهُ بِمَعْنَى مَالُوهُ؛ أَي: مَعْبُودٌ... (وَاللَّهُ: هُوَ الْعَلَمُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ

الْمُخْتَصِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَتَسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ).

(٢) أَحَدٌ: أَي: الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ... وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.

(٣) الصَّمَدُ: هُوَ الَّذِي يُصَمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَاجَاتِ، أَي: يُقْصَدُ لِكَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى

قَضَائِهَا... وَهُوَ: السَّيِّدُ الَّذِي كَمُلَ فِي سُؤْدِدِهِ... وَهُوَ: الْكَامِلُ فِي عِلْمِهِ وَحِلْمِهِ،

وَعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَفِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ.

(٤) لَمْ يَلِدْ: أَي لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُ وَلَدٌ.

(٥) وَلَمْ يُولَدْ: وَلَمْ يَصْدُرْ هُوَ عَنْ شَيْءٍ.

(٦) كُفُوًا: أَي: لَا يُكَافِئُهُ، وَلَا يُمَاتِلُهُ، وَلَا يُشَارِكُهُ، وَلَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ... وَكُفُوًا،

وَكَفُوًا، وَكَفَاءً؛ بِمَعْنَى: وَاحِدٍ، وَهُوَ الْمِثْلُ.

(١) قَالَ الْمُفَسِّرُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْحَبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْكَفَايَةِ فِي التَّفْسِيرِ» (ج ٩ ص ٥٥٠): (هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعُ

شَرْحُ كَلِمَاتِ الْآيَاتِ:

(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أَي: قَوْلًا جَازِمًا بِهِ مُعْتَقِدًا لَهُ عَارِفًا بِمَعْنَاهُ .. فَهُوَ الْأَحَدُ الْمُتَوَحَّدُ، الْمُنْفَرِدُ بِالْكَمَالِ الَّذِي لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتُ الْكَامِلَةُ الْعُلْيَا، وَالْأَفْعَالُ الْمُقَدَّسَةُ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا مَثِيلَ لَهُ، وَلَا ثَانِيَّ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ، وَلَا نِدَّ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١).

قُلْتُ: وَهَذِهِ الْأَقَاوِيلُ لَا يُنَافِي بَعْضُهَا بَعْضًا، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَتَبَّهَ.

* فَهُوَ تَوْحِيدٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَمْرٌ لِلْمُخَاطَبِ بِتَوْحِيدِهِ.

فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ كَانَ قَدْ وَحَدَّ اللَّهُ بِمَا وَحَدَّ بِهِ نَفْسَهُ، وَآتَى

بِلَفْظَةٍ: (قُلْ)، تَحْقِيقًا لِهَذَا الْمَعْنَى، وَأَنَّهُ مُبَلَّغٌ مَحْضٌ، يَعْنِي: أَنَّ النَّبِيَّ بَلَغَ دِينَ اللَّهِ، دُونَ زِيَادَةٍ، أَوْ نُقْصَانٍ، قَائِلٌ لِمَا أَمَرَ بِقَوْلِهِ ... فَأَخْبَرَ عَنِ تَوْحِيدِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ عَنِ نَفْسِهِ؛ بِأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ النُّكْتَةَ الْبَدِيعَةَ^(٢).

(١) سُورَةُ الشُّورَى، آيَةٌ: (١١).

(٢) انظُرْ: «أَضْوَاءَ الْبَيَانِ فِي إِضْحَاحِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ» لِلشَّيْخِ طَيْبٍ (ج ٩ ص ٦١١)، وَ«تَبْسِيرَ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ» لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ (ج ٧ ص ٦٨٦)، وَ«بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةِ» (ج ٥ ص ٣٦٧)، وَ«شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الْوَأَسْطِيَّةِ» لِشَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْبِيِّ (ج ١ ص ١٥٨)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لَهُ (ص ٣٣)، وَ«النُّكْتُ وَالْعُيُونُ» لِلْمَاوَرِدِيِّ (ج ٦ ص ٣٦٩)، وَ«الْبَحْرُ الْمُحِيطُ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج ٨ ص ٥٢٨)، وَ«الْكَفَايَةُ فِي التَّفْسِيرِ» لِلْحَبْرِيِّ (ج ٩ ص ٥٥٩)، وَ«الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (ج ٢٠ ص ٢٤٠)، وَ«الدَّرُّ الْمَثُورُ» لِلشُّيْطِيِّ (ج ١٥ ص ٧٧٧)، وَ«الْكَشْفُ وَالْبَيَانُ» لِلتَّلْعَبِيِّ (ج ١٠ ص ٣٣٤)، وَ«مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ (ج ٨ ص ٥٨٨)، وَ«جَامِعُ الْبَيَانِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٢٤ ص ٧٢٧)، وَ«الصُّوَّةُ الْمُتَبَيِّرَةُ عَلَى التَّفْسِيرِ» لِلصَّالِحِيِّ (ج ٦ ص ٤٨٠) تَفْسِيرُ ابْنِ الْقَيْمِ.

(٢) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَحَدِيَّةَ ذَكَرَ الصَّمَدِيَّةَ، وَأَتَى بِهَا بِجُمْلَةٍ مَعْرِفَةٍ فِي طَرَفِهَا، لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ، أَي: اللَّهُ وَحْدَهُ الصَّمَدُ.
* فَمَا مَعْنَى الصَّمَدِ:

* ﴿الصَّمَدُ﴾، هُوَ الْكَامِلُ فِي عِلْمِهِ، فِي قُدْرَتِهِ، فِي حِكْمَتِهِ، فِي عِزَّتِهِ، فِي سَوْدُدِهِ فِي حِلْمِهِ ... وَهَكَذَا فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ ... وَهُوَ الَّذِي تَصْمَدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهَا؛ بِمَعْنَى: تَمِيلُ إِلَيْهِ، وَتَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَتَرْفَعُ إِلَيْهِ حَوَائِجَهَا، وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، عُلُوِّيَّهَا وَسُفْلِيَّهَا ... فَهُوَ بِمَعْنَى الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ ... تَصْمَدُ الْقُلُوبُ نَحْوَهُ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ خِصَالِ الْخَيْرِ فِيهِ^(١).

قُلْتُ: وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ: ﴿الصَّمَدُ﴾، كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ تَعَالَى.

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ هَذَا تَأْكِيدٌ لِلصَّمَدِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ، وَقُلْنَا: تَوْكِيدٌ لِأَنَّ نَفْسَهُمْ هَذَا مِمَّا سَبَقَ ... فَهُوَ لِأَحَدِيَّتِهِ وَصَمَدِيَّتِهِ لَمْ يَلِدْ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ يَكُونُ عَلَى مِثْلِ الْوَالِدِ فِي الْخَلْقَةِ فِي الصِّفَةِ، وَحَتَّى الشَّبَهِ، وَاللَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

(١) انظر: تَبْسِيرَ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ «لِلسَّعْدِيِّ (ج ٧ ص ٦٨٦)، وَ«الْكَفَايَةِ فِي التَّفْسِيرِ» لِلجَبْرِ (ج ٩ ص ٥٥٩)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لِابْنِ وَهْبٍ (ج ٢ ص ٤٩)، وَ«الْكَشْفَ وَالنِّيَانَ» لِلتَّغَلِبِيِّ (ج ١٠ ص ٣٣٥)، وَ«سُرْحَ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» لِشَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَثِيمِينَ (ج ١ ص ١٦٠)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لَهُ (ص ٣٣)، وَ«الْبَحْرَ الْمُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج ٨ ص ٥٣٠)، وَ«بَدَائِعَ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ الْجُوزِيَّةِ» (ج ٥ ص ٣٦٧)، وَ«الضُّوءَ الْمُنِيرَ عَلَى التَّفْسِيرِ» لِلصَّالِحِيِّ (ج ٦ ص ٤٨٣) تَفْسِيرُ: ابْنِ الْقَيْمِ، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٣٠ ص ٢٢٤)، وَ«مُعْجَمَ مَقَابِيسِ اللُّغَةِ» لِابْنِ فَارِسٍ (ج ٣ ص ٣٠٩)، وَ«مُخْتَارَ الصَّحَاحِ» لِلرَّازِيِّ (ص ١٥٥)، وَ«لِسَانَ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ (ج ٤ ص ٢٤٩٥)، وَ«مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ (ج ٨ ص ٥٨٨).

* «وَلَمْ يُولَدْ»، لِأَنَّهُ لَوْ وُلِدَ لَكَانَ مَسْبُوقًا بِوَالِدٍ، مَعَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا، هُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ ... وَهُوَ الْخَالِقُ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، فَكَيْفَ يُولَدُ ... فَهُوَ لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا^(١).

* وَقَدْ جَاءَتِ النُّصُوصُ الصَّرِيحَةُ فِي نَفْيِ الْوَلَدِ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَهْمِيَّةِ الرَّدِّ عَلَى مُدَّعِيهِ مِنَ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ: «عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ»^(٢)، وَعَلَى النَّصَارَى فِي قَوْلِهِمْ: «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ»^(٣)، وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي قَوْلِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ فِي قَوْلِهِ: «لَمْ يَلِدْ».

قَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ»^(٤).

* فَهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ فِيَمَا قَالُوهُ: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا»، وَنَصٌّ صَرِيحٌ فِي تَنْزِيهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَسْبِيحِهِ عَمَّا قَالُوا.

(١) انظر: «تفسير القرآن» للسمناني (ج ٦ ص ٣٠٤)، و«محاسن التأويل» للقيسي (ج ١٧ ص ٢٩٤)، و«شرح العقيدة الواسطية» لسبخنا محمد بن صالح العثيمين (ج ١ ص ١٦٢)، و«تفسير القرآن» له (ص ٣٥)، و«أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشثيبي (ج ٩ ص ٦١١)، و«الدر المنثور» للسيوطي (ج ١٥ ص ٧٧٨)، و«تفسير القرآن» لابن كثير (ج ١٥ ص ٧٧٨)، و«الكشف والبيان» للعلبي (ج ١٠ ص ٣٣٥)، و«معالم التنزيل» للبعوي (ج ٨ ص ٥٨٨)، و«جامع البيان» للطبري (ج ٢٤ ص ٧٣٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (ج ٢٠ ص ٢٤٠).

(٢) سورة التوبة، آية: (٣٠).

(٣) سورة التوبة، آية: (٣٠).

(٤) سورة البقرة، آية: (١١٦).

* ثُمَّ جَاءَ حَرْفُ الْإِضْرَابِ: (بَلْ)، عَنِ قَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَانِتُونَ﴾، فَفِيهِ بَيَانُ الْمَانِعِ عَقْلًا مِنَ اتِّخَاذِ الْوَالِدِ.
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾^(١)، فَنفَى اللهُ عَنِ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْوَالِدَ ...
وَهَذَا وَاضِحٌ فِي نَفْيِ الْوَالِدِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ * إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا^(٢).

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْوَالِدِ لِغِنَاهُ عَنْهُ.
* وَقَدْ تَمَدَّحَ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾^(٣).
وَلِشَنَاعَةِ هَذِهِ الْفِرْيَةِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ
السَّمَاوَاتُ يَتَطَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا^(٤).

﴿٤﴾ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، أَي: لَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُمَاتِلُهُ، وَلَا يُشَارِكُهُ
فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى^(٥).

(١) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ، آيَةٌ: (٩١).

(٢) سُورَةُ مَرْيَمَ، آيَةٌ: (٩٢ و ٩٣).

(٣) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ، آيَةٌ: (١١١).

(٤) سُورَةُ مَرْيَمَ، آيَةٌ: (٨٨ و ٩١).

* وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، وَكُلُّهَا تَدُورُ عَلَى مَعْنَى نَفِيِّ

الْمُمَثِّلَةِ.

* وَنَفَى اللَّهُ الْوَالِدَ وَالْوَالِدَ وَالْكَفَاءَ عَنْهُ الْمُتَمَصِّنَ؛ لِنَفْيِ الْأَصْلِ وَالْفُرْعِ،

وَالنَّظِيرِ وَالْمُمَثِّلِ مِمَّا اخْتَصَّتْ بِهِ: (سُورَةُ الْإِخْلَاصِ)، وَصَارَتْ تَعْدُلُ ثُلُثَ

الْقُرْآنِ؛ فِيهِ اسْمُهُ: (الصَّمَدُ) إِثْبَاتُ كُلِّ الْكَمَالِ، وَفِي نَفْيِ: (الْكَفَاءِ)، التَّنْزِيهُ عَنِ

الشَّيْبِ وَالْمِثَالِ وَفِي: (الْأَحَدِ)، نَفَى كُلَّ شَرِيكَ لِذِي الْجَلَالِ، وَهَذِهِ الْأُصُولُ

الثَّلَاثَةُ هِيَ مَجَامِعُ التَّوْحِيدِ^(١).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ:

كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ

فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلَ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا

شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ

يَكُنْ لِي كُفْنًا أَحَدٌ»^(٢).

(٥) انظر: «مَحَاسِنَ التَّأْوِيلِ» لِلْقَاسِمِيِّ (ج ١٧ ص ٢٩٦)، وَ«زُبْدَةَ التَّفْسِيرِ مِنْ فَتْحِ الْقَدِيرِ» لِلأَشَقَرِ (ص ٨٢٦)، وَ«شَرْحَ الْعَقِيدَةِ

الْأَوْسَطِيَّةِ» لِشَيْخِنَا ابْنِ عُثْمِينَ (ج ٢ ص ١٦٣)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لَهُ (ص ٣٤)، وَ«النُّكْتَا وَالْعُيُونُ» لِلْمَأْوَدِيِّ (ج ٦ ص ٣٧٢)،

وَ«الْبَحْرَ الْمُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج ٨ ص ٥٨٠)، وَ«الْكَفَايَةَ فِي التَّفْسِيرِ» لِلْحَجَرِيِّ (ج ٩ ص ٥٦٣)، وَ«جَامِعَ الْبَيَانِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٢٤

ص ٧٣٨)، وَ«الدَّرُّ الْمَثُورُ» لِلْسُّيُوطِيِّ (ج ١٥ ص ٧٨٢)، وَ«الْكُشْفَ وَالْبَيَانَ» لِلتَّعَلُّبِيِّ (ج ١٠ ص ٣٣٦)، وَ«مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ

(ج ٨ ص ٥٨٨)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (ج ٨ ص ٥٤٧)، وَ«بَدَائِعَ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةِ» (ج ٥

ص ٣٦٧)، وَ«الضُّوءَ الْمُنِيرَ عَلَى التَّفْسِيرِ» لِلصَّالِحِيِّ (ج ٦ ص ٤٨٤).

(١) انظر: «بَدَائِعَ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةِ» (ج ٥ ص ٣٦٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٤٩٧٤)، وَ(٤٩٧٥).

فَفِي هَذِهِ السُّورَةِ:

(١) صِفَاتٌ ثُبُوتِيَّةٌ.

(٢) وَصِفَاتٌ سَلْبِيَّةٌ.

الصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ:

* (اللَّهُ)، الَّتِي تَتَّصَمَّنُ الْأُلُوهِيَّةَ.

* (أَحَدٌ)، تَتَّصَمَّنُ الْأَحَدِيَّةَ.

* (الصَّمَدُ)، تَتَّصَمَّنُ الصَّمَدِيَّةَ.

وَالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ:

* (لَمْ يَلِدْ)، نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْوَلَدَ.

* (وَلَمْ يُولَدْ)، نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْوِلَادَةَ.

* ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْمَثِيلَ وَالنَّظِيرَ.

* ثَلَاثُ إِثْبَاتٍ، وَثَلَاثُ نَفْيٍ، وَهَذَا النَّفْيُ يَتَّصَمَّنُ مِنَ الْإِثْبَاتِ كَمَالَ الْأَحَدِيَّةِ

وَالصَّمَدِيَّةِ^(١).

فَهَذِهِ السُّورَةُ مُشْتَمِلَةٌ: عَلَى تَوْحِيدِ الْإِتِّحَادِ وَالصِّفَاتِ؛ فَتَتَّصَمَّنَتْ أَهَمُّ الْأَرْكَانِ

الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا رِسَالَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهُ.

مَعْنَى الْآيَاتِ الْإِجْمَالِيَّةِ:

(١) انظر: «شرح العقيدة الواسطية» لشيخنا محمد بن صالح العثيمين (ج ١ ص ١٦٣).

* فَإِنَّ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ: مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الْإِعْتِقَادِيِّ، وَإِثْبَاتِ الْأَحَدِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى الْمُسْتَلْزِمَةِ نَفْيِ كُلِّ شَرِكٍ عَنْهُ، وَإِثْبَاتِ الصَّمَدِيَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِإِثْبَاتِ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ، مَعَ كَوْنِ الْخَلَائِقِ تَصْمُدُ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهَا؛ أَيُّ: تَقْصِدُهُ الْخَلِيقَةُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ عُلُوِّيَّهَا وَسُفْلِيَّهَا، وَنَفْيِ الْوَالِدِ، وَالْوَلَدِ، وَالْكَفِّ عَنْهُ، الْمُتَّصِمِينَ لِنَفْيِ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ، وَالنَّظِيرِ وَالْمُمَاثِلِ.

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ، وَنَفْيَ كُلِّ نَقْصٍ عَنْهُ. وَلِذَلِكَ كَانَتْ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

* فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مَدَارُهُ عَلَى: (الْحَبْرِ)، وَ(الْإِنْشَاءِ).

(١) وَالْإِنْشَاءُ ثَلَاثَةٌ:

(١) أَمْرٌ.

(٢) نَهْيٌ.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(١).

الْأَمْرُ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَالنَّهْيُ: ﴿وَلَا

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الشُّرْكِ.

(٣) وَإِبَاحَةٌ.

(٢) وَالْخَبْرُ نَوْعَانِ:

(١) خَبْرٌ عَنِ الْخَالِقِ تَعَالَى، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَحْكَامُهُ.

(١) سُورَةُ النَّسَاءِ، آيَةٌ: (٣٦).

(٢) وَخَبَّرَ عَنْ خَلْقِهِ؛ كَقَصَصِ الرَّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ^(١).

فَضْلُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ:

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (إِنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَدٌ﴾ يَرُدُّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ - وَكَانَ الرَّجُلَ

يَتَقَالَهَا - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)^(٢).

(٢) وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ

ثُلُثَ الْقُرْآنِ، قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ مَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟، قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

(١) انظر: «شرح الأصول من علم الأصول» لشيخنا محمد بن صالح العثيمين (ص ١١٣، ٥٥، ٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (ج ٩ ص ٥٨)، وأحمد في «المستدر» (ج ٣ ص ٢٣)، وأبو داود في «سننه» (ج ١ ص ٢٣٠)،

والنسائي في «السنن الكبرى» (ج ٦ ص ١٧٦)، وفي «السنن الصغرى» (ج ٢ ص ١٧١)، ومالك في «الموطأ» (ج ١ ص ١٦٣)،

والبيهقي في «السنن الكبرى» (ج ٣ ص ٢١)، وفي «شعب الإيمان» (ج ١ ص ٣٧٦)، وابن جبان في «صحيحه» (ج ٢ ص ١١٥)، وأبو

عبيد في «فضائل القرآن» (ص ١٤٢)، وابن الصريسي في «فضائل القرآن» (ص ١١١)، والبعوي في «شرح السنة» (ج ٤ ص ٢٧٤)،

وفي «معالم التنزيل» (ج ٤ ص ٥٤٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (ج ٢ ص ٨١) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن

أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به.

أَحَدٌ»، تَعْدِلُ^(١) ثُلُثَ الْقُرْآنِ، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ جَزَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ^(٢) فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ)^(٣).



(١) تعدل: أي تساوي.

* فَهَذِهِ السُّورَةُ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي الْجِزَاءِ، لَا فِي الْأَجْزَاءِ، أَي: أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا حَصَلَ لَهُ ثَوَابٌ بِقَدْرِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ.

انظر: «شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» لِشَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَيْثِيِّينَ (ج ١ ص ١٥٧).

(٢) فُسِّرَ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: ثُلُثٌ مِنْهُ أَحْكَامٌ، وَثُلُثٌ مِنْهُ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ وَقِصَصٌ، وَثُلُثٌ مِنْهُ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ، وَهَذِهِ السُّورَةُ جُمِعَتِ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ.

انظر: «الْفَتَاوَى» لِابْنِ تَيْمِيَّةَ (ج ١٧ ص ١٠٣)، وَ«الْمُعَلِّمُ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ» لِلْمَازِرِيِّ (ج ١ ص ٣٠٨).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ١ ص ٥٥٦)، وَالتَّسَائِي فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (ج ٦ ص ١٧٦)، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (ج ٥ ص ١٩٥)، وَالطَّيَالِسِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ» (ص ١٣١)، وَالدَّارِمِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ» (ج ٢ ص ٤٦٠)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلَبِيِّ» (ج ٧ ص ١٦٨)، وَفِي «أَخْبَارِ أَصْبَهَانَ» (ج ٢ ص ٢٨٥)، وَأَبُو عُبَيْدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ١٤٤)، وَابْنُ الضَّرِيرِ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ١١٢)، وَالرَّازِيُّ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ١٣٦)، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج ٧ ص ٢٥٧) وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (ج ٢ ص ٥٠٣)، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «الْمُسْتَحَبِّ مِنَ الْمُسْنَدِ» (ص ١٠١)، وَالْفَاكِهِيُّ فِي «حَدِيثِهِ» (ص ٤٠٦)، وَابْنُ نَصْرِ فِي «قِيَامِ اللَّيْلِ» (ص ١٤٣)، وَالْوَالِجِدِيُّ فِي «الْوَسِيطِ» (ج ٤ ص ٥٧٠)، وَالتَّوْبِيُّ فِي «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» (ج ٤ ص ٥٤٥)، وَابْنُ بَشْرَانَ فِي «الْأَمَالِيِّ» (ص ٣٣٠) مِنْ طَرِيقِ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَلَقِ

مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسُ آيَاتٍ^(١)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ

النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

مَعْنَى غَرِيبِ كَلِمَاتِ الْآيَاتِ:

(١) أَعُوذُ: أَي: أَلْجَأُ وَالْوُدُ، وَأَعْتَصِمُ وَأَتَحَصَّنُ.

(٢) الْفَلَقُ: أَي: فَلَقَ الصُّبْحِ، وَهُوَ مَبْدَأُ ظُهُورِ النُّورِ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا.

قُلْتُ: وَهَذَا أَوْلَى الْأَقْوَالِ، بِدَلِيلِ ذِكْرِ اللَّيْلِ مَعَهُ... وَلِأَنَّ اللَّيْلَ يَنْفَلِقُ عَنْهُ، أَي:

يَنْشَقُّ، وَيَنْفَصِلُ عَنْهُ.

(٣) خَلَقَ: الْخَلْقُ: الْإِبْجَادُ مِنَ الْعَدَمِ، بِتَقْدِيرِ عَظِيمٍ.

(٤) غَاسِقٌ: أَي: اللَّيْلُ إِذَا أَظْلَمَ.

قُلْتُ: وَهَذَا أَوْلَى الْأَقْوَالِ.

(٥) وَقَبَ: أَي: أَظْلَمَ، وَدَخَلَ عَلَى النَّاسِ.

(٦) النَّفَّاثَاتُ: السَّوَاحِرُ يَنْفُثْنَ، وَيَنْفُلْنَ إِذَا سَحَرْنَ وَرَقَيْنَ.

(١) قَالَ الْمُفَسِّرُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْجَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْكَفَايَةِ فِي التَّفْسِيرِ» (ج ٩ ص ٥٦٥): (الْفَلَقُ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسُ

* وَالنَّفْثُ: رِيحٌ يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ لَا رِيْقَ مَعَهُ... فَالْنَفْثُ شَبِيهُ بِالنَّفْخِ، وَهُوَ أَقْلٌ

مِنَ التَّفْلِ.

* وَالتَّفْلُ: رِيْحٌ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ رِيْقٍ... فَالتَّفْلُ: شَبِيهُ بِالْبَرْقِ، وَهُوَ أَقْلٌ مِنْهُ؛

فَأَوَّلُهُ الْبَرْقُ، ثُمَّ التَّفْلُ، ثُمَّ النَّفْثُ، ثُمَّ النَّفْخُ.

(٧) الْعُقْدُ: أَيُّ: فِي الْعُقْدِ الَّتِي يَعْقِدْنَهَا عَلَى السَّحْرِ.

(٨) حَسَدٌ: الْحَسَدُ تَمَنِّي زَوَالِ النُّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْمُحْسُودِ.

شَرْحُ كَلِمَاتِ الْآيَاتِ:

(١) «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ»؛ أَيُّ: قُلْ يَا رَسُولَنَا: أَعُوذُ، أَيُّ: أَسْتَجِيرُ وَأَتَحَصَّنُ

بِرَبِّ الصُّبْحِ: «الْفَلَقِ»، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ هُوَ خَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؛

إِلَّا هُوَ لِعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَسِعَةِ عِلْمِهِ^(١).

(٢) «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، أَيُّ: مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْكَائِنَاتِ مِنْ إِنْسٍ،

وَجِنٍّ، وَحَيَوَانٍ ... وَمِنَ الْجَمَادَاتِ: أَيُّ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْهَا... فَيَسْتَعَاذُ

بِخَالِقِهَا مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِيهَا^(٢).

(١) انظر: «تفسير القرآن» لسرخنا ابن عبيد بن عمير (ص ٥٥)، و«النكت والعيون» للمأوردى (ج ٦ ص ٣٧٣)، و«جامع البيان» للطبري

(ج ٢٤ ص ٧٤٣)، و«تفسير القرآن» لابن كثير (ج ٨ ص ٥٥٣)، و«الدر المنثور» للسبوي (ج ١٥ ص ٧٩٧)، و«تفسير المشكل» من

عرب القرآن» للقيسي (ص ٣٠٩)، و«تفسير سورة الفلق» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ١٦)، و«بدائع التفسير الجامع لتفسير

الإمام ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤٠٢)، و«محاسن التأويل» للقيسي (ج ١٧ ص ٣٠١).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (ج ٧ ص ٦٨٨)، و«تفسير القرآن» للمراغي (ج ٣٠ ص ٢٦٧)،

و«محاسن التأويل» للقيسي (ج ١٧ ص ٣٠١)، و«أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشنيطي (ج ٩ ص ٦٣٥)، و«تفسير

سورة الفلق» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ١٨)، و«تفسير القرآن» لسرخنا ابن عبيد بن عمير (ص ٥٦)، و«المحرر الوجيز» لابن

(٣) ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، أَي: وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا يَكُونُ فِي اللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ، حِينَ يَغْشَى النَّعَاسُ، وَيَتَشَرُّ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُؤْذِيَةِ مِنَ السَّبَاعِ، وَالْهَوَامِّ، وَالذَّوَابِّ ... وَلِأَنَّ فِي اللَّيْلِ مَخَافَ وَمَخَاطِرَ وَيَنْبَعِثُ أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفِسْقِ عَلَى الْعَبَثِ وَالْفَسَادِ ... فَيَسْتَعَاذُ بِاللَّهِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ^(١).

(٤) ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، أَي: وَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ السَّوَاحِرِ، وَهِنَّ النِّسَاءُ اللَّاتِي يَنْفُثْنَ فِي كُلِّ عُقْدَةٍ يَرْقِينَ عَلَيْهَا، وَيَعْقِدْنَهَا بِحُيُوطٍ حِينَ يَسْحَرْنَ بِهَا^(٢).

عَظِيَّة (ج ١٦ ص ٣٨٦)، وَ«الْكَشَفُ وَالْبَيَانُ» لِلتَّعْلِيْقِ (ج ١٠ ص ٣٣٩)، وَ«الْكَفَايَةُ فِي التَّفْسِيرِ» لِلجَوَازِيِّ (ج ٩ ص ٥٦٥)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (ج ٨ ص ٥٥٣)، وَ«جَامِعُ الْبَيَانِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٤ ص ٧٤٣)، وَ«زَادَ الْمَسِيرُ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ج ٩ ص ٢٧٠).
(١) انظُر: «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ» لِلسَّعْدِيِّ (ج ٧ ص ٦٨٨)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِلْمُرَاعِي (ج ٣٠ ص ٢٦٧)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِشَيْخِنَا ابْنِ عَثِيمِينَ (ص ٥٨)، وَ«تَفْسِيرُ الْمُشْكَلِ مِنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ» لِلْقَيْسِيِّ (ص ٣٠٩)، وَ«الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (ج ٢٠ ص ٢٥٤)، وَ«مُخْتَارُ الصَّحَاحِ» لِلرَّازِيِّ (ص ٢١٤)، وَ«بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ قَيْمِ الْجَوْزِيِّ» (ج ٥ ص ٣٩٧)، وَ«أَضْوَاءُ الْبَيَانِ فِي إِضْاحِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ» لِلشُّنْقِطِيِّ (ج ٩ ص ٦٣٦)، وَ«الدَّرُّ الْمَثُورُ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج ١٥ ص ٨٠٠)، وَ«جَامِعُ الْبَيَانِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٢٤ ص ٧٤٧)، وَ«زَادَ الْمَسِيرُ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ج ٩ ص ٢٧٤).

(٢) انظُر: «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ» لِلسَّعْدِيِّ (ج ٧ ص ٦٩٨)، وَ«تَذَكُّرَةُ الْأَرَبِ فِي تَفْسِيرِ الْغَرِيبِ» لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص ٣٢٣)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٣٠ ص ٢٢٧)، وَ«زُبْدَةُ التَّفْسِيرِ مِنْ فَتْحِ الْقَدِيرِ» لِلأَشْمَقَرِيِّ (ص ٨٢٧)، وَ«تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَلَقِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ (ص ٢١)، وَ«إِيجَازُ الْبَيَانِ عَنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ» لِابْنِ أَبِي الْحَسَنِ (ج ٢ ص ٣٤١)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِلْمُرَاعِي (ج ٣٠ ص ٢٦٨)، وَ«الْكَشَفُ وَالْبَيَانُ» لِلتَّعْلِيْقِ (ج ١٠ ص ٣٣٩)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (ج ١٤ ص ٥٢٥)، وَ«الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» لِلْقُرْطُبِيِّ (ج ٢٠ ص ٢٥٤)، وَ«تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ» لِشَيْخِنَا ابْنِ عَثِيمِينَ (ص ٥٨).

(٥) ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، أَي: وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا حَسَدَ، أَي: أَظْهَرَ حَسَدَهُ فَاثْتِغَاكَ يَضْرُكَ، أَوْ أَرَادَكَ بِشَرِّ، أَوْ طَلَبَكَ بِسُوءِ بِحَسَدِهِ لَكَ؛ لِأَنَّ الْحَسَدَ طَلَبُ زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ، وَسَوَاءٌ أَرَادَهَا لَهُ أَوْ لَمْ يَرِدْهَا، وَهُوَ شَرُّ الْحَسَدِ.

* فَسْتَعِيدُ رَبَّنَا مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ إِذَا أَنْفَذَ حَسَدَهُ بِالسَّعْيِ وَالْجِدِّ فِي إِزَالَةِ نِعْمَةٍ مَنْ يَحْسُدُهُ؛ فَهُوَ يَعْمَلُ الْحِيلَةَ، وَيَنْصِبُ شِبَاكَهُ لِإِيقَاعِ الْمَحْسُودِ فِي الضَّرْرِ بِأَدَقِّ الْوَسَائِلِ، وَلَا يُمَكِّنُ إِرْضَاؤُهُ، وَلَا فِي الْإِسْتِطَاعَةِ الْوُقُوفُ عَلَى مَا يُدْبِرُهُ؛ فَهُوَ لَا يَرْضَى إِلَّا بِزَوَالِ النِّعْمَةِ، وَلَيْسَ فِي الطَّرْقِ دَفْعُ كَيْدِهِ وَرَدُّ عَوَادِيهِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَسْتَعِينَ عَلَيْهِ بِالْخَالِقِ الْأَكْرَمِ؛ فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى رَدِّ كَيْدِهِ، وَدَفْعِ أَدَاةِ، وَإِحْبَاطِ سَعْيِهِ.

* وَالْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِي اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِي اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ؛ فَحَسَدَ إِبْلِيسُ آدَمَ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ؛ إِلَّا بِالْحَسَدِ! وَمَا حَسَدَ ابْنُ آدَمَ أَخَاهُ فَقَتَلَهُ إِلَّا بِدَوَافِعِ الْحَسَدِ!

* وَمَا تَأَمَّرَ إِخْوَةَ يُوسُفَ عَلَى أَخِيهِمْ وَالْقَاؤُهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ مَعَ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ؛ إِلَّا مِنْ سُؤْمِ الْحَسَدِ!

* وَهَلْ أَعْرَضَ أَكْثَرُ صَنَادِيدِ الْكُفْرِ عَنِ اتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ؛ إِلَّا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْمَتَّبِعِينَ، لَا التَّابِعِينَ! ﴿قَالُوا أَنْوَمِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾^(١).

(١) سُورَةُ الشُّعْرَاءِ، آيَةٌ: (١١١).

* فَالْحَسَدُ دَاءٌ قَدِيمٌ مِنْ أَدْوَاءِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ، مَا دَخَلَ قَلْبَ رَجُلٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ؛ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى كُلِّ خُلُقٍ مَشِينٍ.

* وَمَا جَاءَ حَسَدُ الْمُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ إِلَّا عَلَى نِعْمَةِ الْوَحْيِ.

* وَهَلْ نَقَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؛ إِلَّا حَسَدًا وَكَمَدًا!:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

* وَهَلْ نَقَمَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْإِلْحَادِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِهِمْ؟.

* وَهَلْ كَادَ الْأَقْرَانُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا لِبَعْضِهِمْ وَسَعَوْا بِالنَّمِيمَةِ وَالْوَقِيعَةِ إِلَّا

بِالْحَسَدِ!

* وَهَلْ كَادَ أَهْلُ الْبِدْعِ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ لِأَهْلِ الْحَقِّ، وَسَعَوْا بِالنَّمِيمَةِ

وَالْوَقِيعَةِ وَالتَّشْوِيشِ إِلَّا بِالْحَسَدِ؛ أَنْ يَكُونُوا هُمْ الْمَتَّبُوعِينَ، لَا التَّابِعِينَ!.

* فَالْحَسَدُ دَاءٌ خَطِيرٌ، وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌ، يَأْكُلُ الْقُلُوبَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْهَشِيمَ؛

فِيَحْمِلُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ، وَقَلَّةِ الدِّينِ، وَالظُّلْمِ، وَالْعُدْوَانِ.

* فَانظُرْ مَا فَعَلَ أَهْلُ الْإِعْتِزَالِ - خُصُومُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ - حَيْثُ

عَذَّبَ وَأَلْقَى فِي السَّجْنِ!.

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، آيَةٌ: (١٠٩).

* وَأَنْظُرْ مَا فَعَلَ خُصُومُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ؛ حَيْثُ لَفَّقُوا لَهُ تَهْمَةَ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ!.

* وَمَا فَعَلَ خُصُومُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ وَحَسَادُهُ؛ حَيْثُ أُلْقِيَ فِي السِّجْنِ بِضَعِ سِنِينَ!.

وَمَا فَعَلُوهُ فِي تَلْمِيذِهِ ابْنِ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ؛ إِلَّا بِسَبَبِ الْحَسَدِ!.

* وَهَلْ نَقَمَ أَهْلُ الشُّرْكِ وَالتَّصَوُّفِ وَالبِدْعَةِ عَلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ، وَسَعَوْا بِتَشْوِيهِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ الْمُبَارَكَةِ؛ إِلَّا حَسَدًا!.

* وَهَلْ وَقَعَ أَهْلُ السِّيَاسَةِ فِي زَمَانِنَا فِي الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ - وَسَعَوْا بِالنَّمِيمَةِ وَالتَّطْعَنِ فِيهِ؛ إِلَّا بِالْحَسَدِ!.

* وَمَا تَأَمَّرَ أَهْلُ الْفِتْنَةِ وَالْإِرْجَافِ وَالتَّفَرُّقِ عَلَى الشَّيْخِ نَاصِرِ الدِّينِ الْأَلْبَانِيِّ -

رَحِمَهُ اللهُ -؛ إِلَّا مِنْ شُؤْمِ الْحَسَدِ!

* وَمَا خَرَجَ الْإِخْوَانِيُّونَ، وَالْقُطَيْبِيُّونَ، وَالشُّرُورِيُّونَ بِالسَّلَاحِ وَالكَلِمَةِ عَلَى

الْحُكَّامِ؛ إِلَّا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ أَنْ يَكُونُوا هُمْ الْحَاكِمِينَ، لَا الْمَحْكُومِينَ!.

* وَمَا تَأَمَّرَ الْحِزْبِيَّةُ: مِنَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقُطَيْبِيِّينَ، وَالشُّرُورِيِّينَ،

وَالْتَرَاثِيِّينَ، وَغَيْرِهِمْ عَلَى السَّلَفِيِّينَ - أَهْلِ الْأَثَرِ وَالحَدِيثِ - فِي زَمَانِنَا إِلَّا

بِالْحَسَدِ؛ فَاجْتَمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ وَنَهَارٍ وَأَزْجَفُوا، فَرَاخُوا - لِوِاسِعِ جَهْلِهِمْ -

يَمْكُرُونَ بِهِمْ، وَيَمْعِنُونَ فِي مَكْرِهِمْ، وَيُؤَلَّبُونَ عَلَيْهِمْ، وَيُصْرُونَ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ

وَإِذَاهُمْ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَرُونَ فِي كَذِبِهِمْ قُرْبَةً يُوَعِّرُونَ بِهَا صُدُورَ مَنْ لَأَنْتَ

لَهُمْ قَنَاءُ الْفِتْنَةِ رِعَاعِ النَّاسِ.

* وَهَكَذَا دَيْدَنَ الْحُسَّادِ؛ يَسْعُونَ بِالنَّوِيْمَةِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، لَا كَثَرَ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَأَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ حَسَدِ الْحَاسِدِينَ، وَشَرِّ الْعَائِبِينَ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

* فَالْحَاسِدُ هُوَ الَّذِي يُحِبُّ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ، فَيَسْعَى فِي زَوَالِهَا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ؛ فَاحْتِجِجْ إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَإِنِّطَالِ كَيْدِهِ.^(١)

* وَيَدْخُلُ فِي الْحَاسِدِ: الْعَائِنُ؛ لِأَنَّهُ لَا تَصْدُرُ الْعَيْنُ إِلَّا مِنْ حَاسِدٍ شَرِيْرِ الطَّبَعِ حَبِيْثِ النَّفْسِ.

* وَيَدْخُلُ كَذَلِكَ -النَّمَامُ- الَّذِي يَقْطَعُ رَوَابِطَ الْمَحَبَّةِ، وَيُبَدِّدُ شَمْلَ الْمَوَدَّةِ. قُلْتُ: وَيَدْخُلُ فِي النَّفَّاتِ هُنَا أَيْضًا الْأَرْوَاحُ، وَالْأَنْفُسُ النَّفَّاتُ... لِأَنَّ تَأْثِيرَ السَّحْرِ أَيْضًا مِنْ جِهَةِ الْأَنْفُسِ الْحَبِيْثَةِ، وَالْأَرْوَاحِ الشَّرِيْرِ.

أَسْبَابُ الْحَسَدِ:

أَنَّ الْحَامِلَ عَلَى الْحَسَدِ أَصْلُهُ أَمْرَانِ:

الْأَوَّلُ: اَزْدِرَاءُ الْمَحْسُودِ.

(١) انظر: «تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (٧ ص ٦٩٨)، و«تفسير القرآن» للمراغي (ج ٣٠ ص ٢٦٨)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (ج ٩ ص ٢٧٣)، و«المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (ج ١٦ ص ٣٨٦)، و«النكت والعيون» للماوردي (ج ٦ ص ٣٧٥)، و«الكفاية في التفسير» للجيري (ج ٩ ص ٥٧٠)، و«بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤١٣)، و«تفسير سورة الفلق» للشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ (ص ٢٦)، و«تفسير القرآن» لشيخين ابن عثيمين (ص ٥٩)، و«جامع البيان» للطبري (ج ٢٤ ص ٧٤٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (ج ٢٠ ص ٢٥٥)، و«تفسير القرآن» لابن أبي زَمِينٍ (ج ٥ ص ١٧٤).

الثَّانِي: إِعْجَابُ الْحَاسِدِ بِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ إِبْلِيسُ مُعَلِّلاً لِامْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾^(١).

* ثُمَّ فَصَّلَ مَعْنَى الْخَيْرِيَّةِ الْمَزْعُومَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ جَمِيعُ الْأَسْبَابِ. وَقَدْ ذَكَرُوا مِنْهَا:

* التَّعَزُّزُ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يُرِيدُ لِأَحَدٍ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ، وَالتَّعَجُّبُ بِأَنْ يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَرَى أَحَدًا أَوْلَى مِنْهُ، وَالْخَوْفُ مِنْ فَوَاتِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ شَخْصٍ إِذَا رَأَهُ سَيُعْغِي عَنْهُ، وَحُبُّ الرَّئِاسَةِ مِمَّنْ لَا يُرِيدُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ فِي أَيِّ فَنٍّ أَوْ مَجَالٍ. * وَمِنْ هُنَا لَا نَرَى مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ قَطُّ، إِلَّا وَيَزْدَرِي الْآخَرِينَ، وَيَحْسُدُهُمْ عَلَى أَدْنَى نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، عَافَانَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ.

قُلْتُ: وَكَمَا فِي الْأَثَرِ: (الْمُؤْمِنُ يَغِبُطُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ)؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ.

* فَهَذِهِ السُّورَةُ تَضَمَّنَتْ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ عُمُومًا وَخُصُوصًا. وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ السَّحَرَ لَهُ حَقِيقَةٌ يُخْشَى مِنْ ضَرَرِهِ، وَيُسْتَعَاذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمِنْ أَهْلِهِ.

مَعْنَى الْآيَاتِ الْإِجْمَالِيَّةِ:

(١) سُورَةُ الْأَعْرَافِ، آيَةٌ، سُورَةُ صِ آيَةٌ (٧٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؛ أَي: قُلْ أَسْتَعِيذُ بِرَبِّ الْمَخْلُوقَاتِ،
وَمُبْدِعِ الْكَائِنَاتِ مِنْ كُلِّ أَدَى، وَشَرِّ يُصَيْبِي مِنْ مَخْلُوقٍ.

* ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؛ أَي: وَمِنْ شَرِّ اللَّيْلِ إِذَا دَخَلَ وَغَمَرَ كُلَّ شَيْءٍ
بِظَلَامِهِ، وَاللَّيْلُ إِذَا كَانَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ كَانَ مَخُوفًا بَاعِثًا عَلَى الرَّهْبَةِ فَيَسْتَعَاذُ بِاللَّهِ
مِنْهُ.

* ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾؛ أَي: وَمِنْ شَرِّ السَّوَاحِرِ وَالسَّحَرَةِ،
وَالنَّمَامِينَ؛ فَالنَّمِيمَةُ: تَحْوِيلُ مَا بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ مِنْ مَحَبَّةٍ إِلَى عَدَاوَةٍ بِالْوَسَائِلِ
الْخَفِيَّةِ الَّتِي تُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ ضَرْبًا مِنَ السَّحْرِ، وَيَضْعُبُ الْإِحْتِيَاطُ وَالتَّحَفُّظُ مِنْهَا؛
فَالنَّمَامُ يَأْتِي لَكَ بِكَلَامٍ يُشَبِّهُ الصِّدْقَ، فَيَضْعُبُ عَلَيْكَ تَكْذِيبُهُ كَمَا يَفْعَلُ السَّاحِرُ
الْمُشْعُوذُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحُلَّ الْمَحَبَّةَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

* ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾؛ أَي: وَنَسْتَعِيذُ بِكَ رَبَّنَا مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ إِذَا
أَنفَدَ حَسَدَهُ.

* فَتَضَمَّنَتِ السُّورَةُ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ وَبِخَاصَّةِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ،
وَالسَّوَاحِرِ، وَالنَّمَامِينَ، وَالْحَسَدَةَ؛ وَهِيَ دَرْسٌ بَلِيغٌ وَتَعْلِيمٌ نَافِعٌ عَظِيمٌ لِحِمَايَةِ
النَّاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ بِسَبَبِ أَمْرَاضِ النُّفُوسِ، وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ شَرِّ ذَوَاتِ
السُّمُومِ، وَشَرِّ اللَّيْلِ إِذَا أَظْلَمَ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ مَخَافٍ وَمُفَاجَأَتٍ وَبِخَاصَّةِ فِي
الْبَرَارِيِّ وَالْكُهُوفِ.

فُضِّلَ الْمُعَوِّذَتَيْنِ مَجْمُوعَتَيْنِ:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلَهُنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(١).



(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٦ ص ٩٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٥ ص ١٧٠)، وَالرُّوَيْانِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ» (ص ٨٢)، وَالطَّحَاوِيُّ فِي «مُسْكِلِ الْأَثَارِ» (ج ١ ص ٣٤)، وَشَهَدَهُ فِي «مَشِيخَتِهَا» (ص ٦٢)، وَالسَّائِي فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» (ج ٥ ص ١٧)، وَفِي «السُّنَنِ الصُّغْرَى» (ج ٢ ص ١٧٨)، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (ج ٤ ص ١٤٤)، وَالسَّمْعَانِيُّ فِي «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (ج ٦ ص ٣٠٩)، وَالْوَاحِدِيُّ فِي «الْوَسِيطِ» (ج ٤ ص ٥٧٢)، وَالبُعَوِيُّ فِي «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» (ج ٤ ص ٥٤٨)، وَالطَّلِبَائِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ» (ص ١٣٥)، وَالدَّارِمِيُّ فِي «الْمُسْنَدِ» (ج ٢ ص ٤٦٢)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ» (ج ١٧ ص ٣٤٩)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «أَخْبَارِ أَصْبَهَانَ» (ج ١ ص ٢٦١)، وَابْنُ الضَّرَنِسِ فِي «فُضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ١٢٢)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» (ج ٢ ص ٣٤٩)، وَفِي «شَعَبِ الْإِيمَانِ» (ص ٥٠٠) مِنْ طَرِيقِ قَيْسِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّاسِ

مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا سِتُّ آيَاتٍ^(١)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ *
الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

مَعْنَى غَرِيبٍ كَلِمَاتِ الْآيَاتِ:

(١) أَعُوذُ: أَي: أَلْجَأُ وَالْوُدُّ وَأَعْتَصِمُ وَأَتَّحِصِنُ.

(٢) رَبِّ النَّاسِ: أَي: مُرَبِّيهِمْ وَمُنَمِّيهِمْ، وَمُرَاعِي شُؤْنِهِمْ.

وَالرَّبُّ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى. وَالرَّبَّانِيُّ: الْعَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ كُنُوا رَبَّانِيْنَ﴾^(٢).

(٣) مَلِكِ النَّاسِ: أَي: مَلِيكُهُمْ، وَسَيِّدُهُمْ، وَحَاكِمُهُمْ.

(٤) إِلَهِ النَّاسِ: الْإِلَهُ: الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ وَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُدَبِّرُ

الْأَمْرِ فِيهِمَا، فَهُوَ مَعْبُودُ النَّاسِ بِحَقٍّ، إِذْ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

(١) قَالَ الْمُفَسِّرُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْجَبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْكَفَايَةِ فِي التَّفْسِيرِ» (ج ٩ ص ٥٦٥): (سُورَةُ النَّاسِ: مَدَنِيَّةٌ). اهـ

(٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةٌ: (٧٩).

(٥) الْوَسْوَاسُ: أَي: الْمَوْسُوسُ الَّذِي يُلْقِي حَدِيثَ الشَّرِّ وَالسُّوءِ فِي النَّفْسِ
بِالصَّوْتِ الْخَفِيِّ.

وَالْمُرَادُ: بِهِ الشَّيْطَانُ.

(٦) الْخَنَاسُ: مِنْ خَنَسَ يَخْنِسُ إِذَا تَوَارَى وَاخْتَفَى... فَهُوَ مِنَ الْإِخْتِفَاءِ،
وَالرُّجُوعِ، وَالتَّأَخَّرِ.

وَحَقِيقَةُ اللَّفْظِ: اخْتِفَاءٌ بَعْدَ ظَهْوَرٍ، فَلَيْسَتْ لِمَجَرَّدِ الْإِخْتِفَاءِ.

وَأَصْلُ الْخُنُوسِ: الرُّجُوعُ إِلَى وَرَاءِ.

وَالْمُرَادُ: بِهِ الشَّيْطَانُ أَيْضًا.

(٧) الْجِنَّةُ: وَاحِدُهُمْ جِنِّيٌّ... كَانِسٍ وَإِنْسِيٍّ... فَالْجِيمُ وَالنُّونُ: تَعْنِي السَّتْرَ

وَالْخِفَاءَ. وَالْجِنِّيُّ بِمَعْنَى: الْخَفِيِّ، أَوِ الْمُسْتَتِرِ، أَوْ غَيْرِ الْمَرِيئِيِّ...

وَمِنْهُ: قَلْبُ الْمَرْءِ يُسَمَّى: (الْجِنَانُ)؛ لِأَنَّهُ مُسْتَوْرٌ، وَالصَّدْرُ يَجْنُهُ، أَي: يَسْتُرُهُ.

وَ(الْجَيْنِ)، يُسَمَّى: بِهَذَا الْإِسْمِ لِاسْتِتَارِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

وَمِنْهُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾^(١).

وَيُقَالُ: وَجَنَّ الرَّجُلُ جُنُونًا، وَأَجَنَّهُ اللَّهُ، فَهُوَ: (مَجْنُونٌ): إِذَا غَابَ عَقْلُهُ،

وَاسْتَتَرَ رُشْدَهُ.

وَمِنْهُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(٢).

(١) سُورَةُ النَّجْمِ، آيَةٌ: (٣٢).

(٢) سُورَةُ سَبَأٍ، آيَةٌ: (٨).

وَيَقَالُ: (جَنَّةُ اللَّيْلِ) أَي: أَخْفَاهُ وَسَتَرَهُ بِظُلَامِهِ.
 وَمِنْهُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾^(١).
 وَالصِّيَامُ: (جُنَّةٌ)، أَي: سَتْرٌ وَوَقَايَةٌ.
 وَمِنْهُ؛ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ)^(٢).
 وَيَقَالُ: (الْجَنَّةُ)؛ لِكثْرَةِ شَجَرِهَا، بِحَيْثُ يَسْتُرُ بَعْضُهَا بَعْضًا.
 وَتُطْلَقُ الْعَرَبُ عَلَى: (التُّرْسِ)، الَّذِي يُسْتَرُّ بِهِ الْمُقَاتِلُ: (الْمَجَّةُ)؛ لِأَنَّ الْمُقَاتِلَ
 يُسْتَرُّ بِهِ مِنَ الرَّامِي، وَالطَّاعِنِ، وَالضَّارِبِ.
 * فَكُلُّ شَيْءٍ وَقَيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، وَاسْتَتَرْتَ بِهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ فَهُوَ: (جُنَّةٌ).
 * إِذَا الْجِيمُ وَالنُّونُ بِشَتَّى تَشْكِيلَاتِهَا فِي اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَهِيَ تَعْنِي مِنْ خَفِي،
 أَي: مِنَ السَّتْرِ وَالْخَفَاءِ.
 (٨) النَّاسُ: الْإِنْسُ ضِدُّ الْجِنِّ.
 يُقَالُ: أَنْسْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَبْصَرْتَهُ.
 وَمِنْهُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
 الطُّورِ نَارًا﴾^(٣) أَي: رَأَى نَارًا.
 فَالْإِنْسِيُّ: الشَّيْءُ الْمَرْتِيئِي.

(١) سُورَةُ الْأَنْعَامِ، آيَةٌ: (٧٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٩٠٤)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (١١٥١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) سُورَةُ الْقَصَصِ، آيَةٌ: (٢٩).

وَالْجِنِّي: الشَّيْءُ غَيْرُ الْمَرْئِيِّ.

شَرَحُ كَلِمَاتِ الْآيَاتِ:

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِمَنْ يُرَبِّي النَّاسَ بِنِعْمِهِ،

وَيُؤَدِّبُهُمْ بِنِقْمِهِ، وَمَتَعَهُدُهُمْ بِعِنَايَتِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَمُصْلِحِ أَحْوَالِهِمْ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

(٢) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، أَي: مَالِكِهِمْ وَمُدَبِّرِ أُمُورِهِمْ، وَوَاضِعِ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ

الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَلَهُ الْمُلْكُ التَّامُّ وَالسُّلْطَانُ الْقَاهِرُ^(٢).

(٣) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، أَي: مَعْبُودِ النَّاسِ بِحَقِّ، إِذْ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى... وَاسْمُ الْإِلَهِ خَاصٌّ بِاللَّهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ^(٣).

* فَذَكَرَ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْمَالِكِيَّةَ وَالْأَلُوْهِيَّةَ... فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ... وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ

... وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ.

(١) انظر: «تفسير القرآن» للمراغي (ج ٣٠ ص ٢٦٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (ج ٢٠ ص ٢٦٠)، و«معالم التنزيل»

للبنغوي (ج ٤ ص ٥٥٥)، و«الكفاية في التفسير» للحيري (ج ٩ ص ٥٦٥)، و«جامع البيان» للطبري (ج ٣٠ ص ٣٥٥)، و«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (ج ٧ ص ٦٨٩)، و«بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤٣٩).

(٢) انظر: «تفسير القرآن» للمراغي (ج ٣٠ ص ٢٧٠)، و«التفسير المنير» للزحيلي (ج ٣٠ ص ٤٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن»

للقرطبي (ج ٢٠ ص ٢٦١)، و«تفسير سورة الناس» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ١٩)، و«الكفاية في التفسير» للحيري (ج ٩ ص ٥٦٥)، و«تفسير القرآن» لمقاتل بن سليمان (ج ٤ ص ٩٣٣).

(٣) انظر: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشنقيطي (ج ٩ ص ٦٥٨)، و«إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»

لأبي السعود (ج ٩ ص ٢١٦)، و«تفسير سورة الناس» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ٢٧)، و«تفسير القرآن» لابن كثير (ج ٤ ص ٦١١)، و«الكفاية في التفسير» للحيري (ج ٩ ص ٥٧٨)، و«النكت والعيون» للمأوردي (ج ٦ ص ٣٧٥)، و«تفسير القرآن» لشيخنا

ابن عثيمين (ص ٣٣)، و«جامع البيان» للطبري (ص ٣٠ ص ٣٥٥)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (ج ٩ ص ٢٨٠).

(٤) ﴿مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، أَي: أَلْجَأَ إِلَيْكَ رَبَّ الْخَلْقِ وَإِلَهُهُمْ وَمَعْبُودَهُمْ: أَنْ تُنَجِّينَا مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الْمَوْسُوسِ، الْكَثِيرِ الْخُنُوسِ وَالْإِخْتِفَاءِ، لِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الْبَاطِلِ فَلَا يَسْتَطِيعُ مُقَاوَمَةَ الْحَقِّ إِذَا صَدَمَهُ، وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ بِالنَّفْسِ إِلَى أَسْوَأِ مَصِيرٍ إِذَا انْجَرَّتْ مَعَ وَسْوَاسَتِهِ، وَانْسَاقَتْ مَعَهُ إِلَى تَحْقِيقِ مَا خَطَرَ بِالْبَالِ.

* وَالْوَسَاوِسُ تَذْهَبُ هَبَاءً إِذَا تَبَهَّتِ النَّفْسُ لِأَوْامِرِ الشَّرْعِ ... وَهَكَذَا
* إِذَا وَسَّوَسَ لَكَ أَمْرًا، وَبَعَثَكَ عَلَى فِعْلِ السُّوءِ ثُمَّ ذَكَرْتَهُ بِأَوْامِرِ الدِّينِ يَخْنَسُ، وَيُمْسِكُ عَنِ الْقَوْلِ إِلَى أَنْ تَسْنَحَ لَهُ فُرْصَةٌ أُخْرَى^(١).
* وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ بِقَوْلِهِ:

(٥) ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، أَي: إِنَّ هَذَا الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ الْبَشَرِ، قَدْ يَكُونُ مِنَ: (الْجِنَّةِ)، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ: (النَّاسِ)؛ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(٢)، فَشَيْطَانُ الْجِنِّ قَدْ يُوسِّسُ تَارَةً، وَيَخْنَسُ أُخْرَى،

(١) انظر: «تفسير القرآن» للمراغي (ج ٣٠ ص ٢٧٠)، و«تفسير سورة الناس» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ٣٢)، و«تفسير القرآن» لابن أبي زيمين (ج ٥ ص ١٧٥)، و«بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤٤٣)، و«تفسير القرآن» للسمرقاني (ج ٦ ص ٣٠٨)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» لابن الجوزي (ص ٣٢٤)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» لابن أبي الحسن (ج ٢ ص ٣٤٢)، و«تفسير المشكل من غريب القرآن» للقيسي (ص ٣٠٩)، و«جامع البيان» للطبري (ج ٣٠ ص ٢٢٨)، و«إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» لأبي السعود (ج ٩ ص ٢١٩)، و«الكشف والبيان» للثعلبي (ج ١٠ ص ٣٣٥).

(٢) سورة الأنعام: (١١٢).

وَشَيْطَانِ الْإِنْسِ كَذَلِكَ، فَكَثِيرًا مَا يُرِيكَ أَنَّهُ نَاصِحٌ شَفِيقٌ، فَإِذَا زَجَرْتَهُ خَسَسَ وَتَرَكَ هَذِهِ الْوَسْوَسةَ، وَإِذَا أَصْغَيْتَ إِلَيْهِ كَلَامِهِ اسْتَرْسَلَ فِي حَدِيثِهِ وَبَالَغَ فِيهِ^(١).
قُلْتُ: فَالْمَوْسُوسُونَ قِسْمَانِ:

(١) قِسْمُ الْجِنَّةِ: وَهُمْ الْخَلْقُ الْمُسْتَرْتُونَ الَّذِينَ لَا نَعْرِفُهُمْ، وَإِنَّمَا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا أَثْرًا مِنْ وَسْوَستِهِمْ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ شَيْطَانٌ.

(٢) قِسْمُ النَّاسِ: وَوَسْوَستُهُمْ مَا نَشَاهِدُهُ وَنَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا، وَنَسْمَعُهُ بِأَذَانِنَا.

فَهَذِهِ السُّورَةُ مُشْتَمَلَةٌ: عَلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِرَبِّ النَّاسِ وَمَالِكِهِمْ وَإِلَهُهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الشُّرُورِ كُلِّهَا وَمَادَّتُهَا، الَّذِي مِنْ فَتْنَتِهِ وَشَرِّهِ أَنَّهُ يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، فَيُحَسِّنُ لَهُمُ الشَّرَّ، وَيُرِيهِمْ إِيَّاهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَيُنَشِّطُ إِرَادَتَهُمْ لِفِعْلِهِ.

فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ:

قَدْ اشْتَمَلَتِ السُّورَتَانِ: (الْفَلَقُ)، وَ(النَّاسُ)؛ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصُولٍ، وَهِيَ أَصُولُ الْإِسْتِعَاذَةِ:

أَحَدُهَا: نَفْسُ الْإِسْتِعَاذَةِ.

(١) انظُرْ: «تَبْسِيرَ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ» لِلْسَّعْدِيِّ (ج ٧ ص ٦٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لِابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ (ج ٣ ص ٥١٣)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ» لِابْنِ كَثِيرٍ (ج ٤ ص ٦١٦)، وَ«بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ ابْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةِ» (ج ٥ ص ٤٥٩)، وَ«مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبُغَوِيِّ (ج ٤ ص ٥٤٨)، وَ«زَادَ الْمَسِيرُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ» لِابْنِ الْجُوزِيِّ (ج ٩ ص ٢٧٩)، وَ«تَفْسِيرَ سُورَةِ النَّاسِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ (ص ٤٧)، وَ«الْكَفَايَةُ فِي التَّفْسِيرِ» لِلْجَبَرِيِّ (ج ٩ ص ٥٧٦)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لِشَيْخِنَا ابْنِ عُثَيْمِينَ (ص ٣٣)، وَ«جَامِعُ الْبَيَانِ» لِلطَّبْرِيِّ (ج ٣٠ ص ٢٢٩)، وَ«تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ» لِابْنِ أَبِي زَمَنِينَ (ج ٥ ص ١٧٦)، وَ«الْكَشَفُ وَالْبَيَانُ» لِلتَّلْغَيْبِيِّ (ج ١٠ ص ٣٣٥).

الثَّانِيَةُ: الْمُسْتَعَاذُ بِهِ.

الثَّلَاثَةُ: الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ.

* فَبِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ تُعْرَفُ شِدَّةُ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ إِلَى هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ.

أَوَّلًا: الْإِسْتِعَاذَةُ:

اعْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ: (عَاذُ)، وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى التَّحَرُّزِ وَالتَّحَصُّنِ وَالتَّجَاةِ.

وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهَا: الْهُرُوبُ مِنْ شَيْءٍ تَخَافُهُ إِلَى مَنْ يَعِصُمُكَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا يُسَمَّى الْمُسْتَعَاذُ بِهِ: مُعَاذًا، كَمَا يُسَمَّى: مَلْجَأً. فَمَعْنَى: (أَعُوذُ): أَلْتَجِيءُ، وَأَعْتَصِمُ، وَاتَّحَرَّزُ.

وَفِي أَصْلِهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَا أُخُوذُ مِنَ السَّيْرِ؛ فَالْعَائِدُ: قَدِ اسْتَرَّ مِنْ عَدُوِّهِ بِمَنْ اسْتَعَاذَ بِهِ مِنْهُ

وَاسْتَنْجَدَ بِهِ مِنْهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ مَا أُخُوذُ مِنْ لُزُومِ الْمُجَاوَرَةِ؛ فَكَذَلِكَ: الْعَائِدُ قَدِ اسْتَمْسَكَ

بِالْمُسْتَعَاذِ بِهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ وَلَزِمَهُ. قُلْتُ: وَالْقَوْلَانِ حَقٌّ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ^(١).

* وَعِبَارَاتُ الْإِسْتِعَاذَةِ تَبْدَأُ بِ (أَعُوذُ)، (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)؛

كَقَوْلِهِ ﷺ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ)^(٢) وَقَوْلِهِ ﷺ: (أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ

(١) انظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٣٧٥)، و«تفسير سورة الفلق» للشيخ محمد بن عبد الوهاب

(ص ١٦)، و«الضوء المنير على التفسير» للصالحى (ج ٦ ص ٤٩١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (ج ٤ ص ٢٠٨٠)، والترمذي في «سننه» (ج ٥ ص ٤٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى»

(ج ٥ ص ٢٥٣) من حديث حوالة بنت حكيم رضي الله عنها.

وَقُدْرَتِهِ^(١) وَقَوْلِهِ ﷺ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ)^(٢)، وَبِ (اسْتَعِذْ)؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣)، كَقَوْلِكَ: (اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، أَوْ (اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)؛ فَهَذَا جَائِزٌ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَكْمَلُ وَأَكْثَرُ، بَلِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ أَنْ يَقُولَ (أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)، وَ(أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)، دُونَ: (اسْتَعِذْ) فَجَاءَ بِلَفْظِ الْأَمْرِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ كَمَا قِيلَ لَهُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِهِ ﷺ.

ثَانِيًا: فِي الْمُسْتَعَاذِ:

وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، رَبُّ الْفَلَقِ، وَرَبُّ النَّاسِ، مَلِكُ النَّاسِ، إِلَهُ النَّاسِ، الَّذِي لَا يَنْبَغِي الْإِسْتِعَاذَةَ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَعَاذُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلِ هُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْمُسْتَعِيدِينَ، وَيَعِصِمُهُمْ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذُوا مِنْ شَرِّهِ.

* وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَمَّنِ اسْتَعَاذَ بِخَلْقِهِ: أَنْ اسْتِعَاذَتْهُ زَادَتْهُ طُغْيَانًا وَرَهَقًا.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٣ ص ١٧١٨)، وَمَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (ج ٢ ص ٩٤٢)، وَأَحْمَدٌ فِي «الْمُسْنَدِ» (ج ٤ ص ٢١٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٥ ص ٥٣٥) مِنْ حَدِيثِ عُمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ﷺ.

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ١ ص ٢٠٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٢ ص ٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» (ج ١ ص ٣١٣)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ١ ص ٢٦٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ؛ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٣) سُورَةُ النَّحْلِ، آيَةٌ: (٩٨).

فَقَالَ تَعَالَى، حِكَايَةً عَنِ الْمُؤْمِنِي الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١)، أَي: فَزَادَ الْإِنْسُ الْجِنُّ بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِسَادَتِهِمْ رَهَقًا أَي: طُغْيَانًا، وَإِثْمًا، وَشَرًّا.

وَالرَّهَقُ، فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْإِثْمُ وَغَشْيَانُ الْمَحَارِمِ، فَزَادُوهُمْ بِهِذِهِ الْإِسْتِعَاذَةِ غَشْيَانًا لِمَا كَانَ مَحْظُورًا مِنَ الْكِبْرِ وَالتَّعَاظِمِ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَادُوا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ.

* وَجَاءَتِ الْإِسْتِعَاذَةُ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: بِاسْمِ الرَّبِّ، وَالْمَلِكِ، وَالْإِلَهِ.
* وَجَاءَتِ الرَّبُوبِيَّةُ مُضَافَةً إِلَى الْفَلَقِ، وَإِلَى النَّاسِ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ يُنَاسِبُ الْإِسْتِعَاذَةَ الْمَطْلُوبَةَ، وَيَقْتَضِي دَفْعَ الشَّرِّ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ أَعْظَمَ مُنَاسَبَةً وَأَبْيَنَهَا.

ثَالِثًا: الشَّيْءُ الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ:

الشَّرُّ الَّذِي يُصِيبُ الْعَبْدَ لَا يَخْلُو مِنْ قِسْمَيْنِ:

(١) إِمَّا ذُنُوبٌ وَقَعَتْ مِنْهُ يَعَاقِبُ عَلَيْهَا.

* فَيَكُونُ وَقُوعُ ذَلِكَ بِفِعْلِهِ، وَقَصْدِهِ، وَسَعْيِهِ، وَيَكُونُ هَذَا الشَّرُّ هُوَ الذُّنُوبُ

وَمَوْجِبَاتِهَا، وَهُوَ أَعْظَمُ الشَّرِّينِ وَأَذْوَمُهُمَا، وَأَشَدُّهُمَا اتِّصَالًا بِصَاحِبِهِ^(٢).

(١) سُورَةُ الْجِنِّ، آيَةٌ: (٦).

(٢) انْظُرْ: «بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ الْجَوْزِيَّةِ» (ج ٥ ص ٣٨٢)، وَ«تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ (ص ٣٠)، وَ«الصَّوَاءُ الْمُتَبَيِّرُ عَلَى التَّفْسِيرِ» لِلصَّالِحِيِّ (ج ٦ ص ٤٩٦).

(٢) وَإِمَّا شَرٌّ وَقِعَ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ الْغَيْرُ، إِمَّا مُكَلَّفٌ أَوْ غَيْرُ مُكَلَّفٍ،
وَالْمُكَلَّفُ إِمَّا نَظِيرُهُ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، أَوْ لَيْسَ نَظِيرُهُ، وَهُوَ الْجِنِّيُّ، وَغَيْرُ الْمُكَلَّفِ:
مِثْلُ الْهَوَامِّ وَذَوَاتِ الْحِمَّةِ^(١) وَغَيْرِهَا.

فَتَضَمَّنَتْ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ كُلِّهَا بِأَوْجَزِ لَفْظٍ
وَأَجْمَعِهِ، وَأَدَّلَّهُ عَلَى الْمُرَادِ، وَأَعَمَّهُ اسْتِعَاذَةً، بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ شَرٌّ مِنَ الشُّرُورِ إِلَّا
دَخَلَ تَحْتَ شَرِّ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ فِيهِمَا.

فَإِنَّ سُورَةَ الْفَلَقِ تَضَمَّنَتْ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

أَحَدُهَا: شَرُّ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَهَا شَرٌّ عُمُومًا.

الثَّانِي: شَرُّ الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ.

الثَّالِثُ: شَرُّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ.

الرَّابِعُ: شَرُّ الْحَاسِدِ إِذَا حَسَدَ.

* فَتَكَلَّمْ عَلَى هَذِهِ الشُّرُورِ الْأَرْبَعَةِ؛ مَوَاقِعِهَا وَاتِّصَالِهَا بِالْعَبْدِ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْهَا

قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَبِمَاذَا تُدْفَعُ بَعْدَ وَقُوعِهَا.

* وَقَبْلَ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ الشَّرِّ: مَا هُوَ؟، وَمَا حَقِيقَتُهُ؟.

فَنَقُولُ:

(١) الْحِمَّةُ: جَمْعُ حَمَّةٍ، وَهُوَ السَّمُّ، أَوْ الْإِبْرَةُ الَّتِي تَضْرِبُ بِهَا الزُّبُورُ، وَالْحَيْثُ، وَالْعَقْرَبُ، وَتَحْوُ ذَلِكَ، أَوْ يَلْدَغُ بِهَا.

انظُرْ: «بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ» لِابْنِ الْقَيْمِ (ج ٢ ص ٢٠٤).

الشَّرُّ يُقَالُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى الْأَلَمِ، وَعَلَى مَا يُفْضِي إِلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ مُسَمًّى سِوَى ذَلِكَ؛ فَالشَّرُّ هِيَ الْأَلَامُ وَأَسْبَابُهَا. فَالْمَعَاصِي وَالْكَفْرُ، وَالشَّرُّ وَأَنْوَاعُ الظُّلْمِ هِيَ شُرُورٌ، وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا فِيهَا نَوْعٌ غَرَضٍ وَلَذَّةٍ، لَكِنَّهَا شُرُورٌ؛ لِأَنَّهَا أَسْبَابُ الْأَلَامِ وَمُفْضِيَةٌ إِلَيْهَا كَافْتِضَاءِ سَائِرِ الْأَسْبَابِ إِلَى مُسَبِّبَاتِهَا.

* فَتَرْتُبُ الْأَلَمَ عَلَيْهَا كَتَرْتُبِ الْمَوْتِ عَلَى تَنَاوُلِ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، وَعَلَى الذَّبْحِ وَالْإِحْرَاقِ بِالنَّارِ، وَالخَنْقِ بِالْحَبْلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَكُونُ مُفْضِيَةً إِلَى مُسَبِّبَاتِهَا وَلَا بُدَّ، مَا لَمْ يُمْنَعْ مِنَ السَّبَبِيَّةِ مَانِعٌ، أَوْ يُعَارِضِ السَّبَبَ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ وَأَشَدُّ افْتِضَاءً لِبُضْءِهِ، كَمَا يُعَارِضُ سَبَبَ الْمَعَاصِي قُوَّةُ الْإِيمَانِ وَعِظْمُ الْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ وَكَثْرَتُهَا، فَيَزِيدُ فِي كَمِّيَّتِهَا أَوْ كَيْفِيَّتِهَا عَلَى أَسْبَابِ الْعَذَابِ، فَيَدْفَعُ الْأَقْوَى الْأَضْعَفَ.

* وَهَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ الْمُتَضَادَّةِ؛ كَأَسْبَابِ الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَأَسْبَابِ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ الَّتِي فِيهَا لَذَّةٌ مَا هِيَ شَرٌّ، وَإِنْ نَالَتْ بِهَا النَّفْسُ مَسْرَّةً عَاجِلَةً، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ طَعَامٍ لَذِيذٍ شَهِيٍّ لَكِنَّهُ مَسْمُومٌ، إِذَا تَنَاوَلَهُ الْأَكْلُ لَذَّ لِأَكْلِهِ، وَطَابَ لَهُ مَسَاعُغُهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَفْعَلُ؛ فَهَكَذَا الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ وَلَا بُدَّ، حَتَّى لَوْ لَمْ يُخْبِرِ الشَّارِعُ بِذَلِكَ لَكَانَ الْوَاقِعُ وَالتَّجْرِبَةُ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ مِنْ أَكْبَرِ شُهُودِهِ.

* وَهَلْ زَالَتْ عَنْ أَحَدٍ قَطُّ نِعْمَةٌ إِلَّا بِشُؤْمٍ مَعْصِيَتِهِ؟؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً حَفِظَهَا عَلَيْهِ، وَلَا يُغَيِّرُهَا عَنْهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ السَّاعِي فِي تَغْيِيرِهَا عَنْ

نَفْسِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(١).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

* وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَرَالَ نِعْمَهُ عَنْهُمْ، وَجَدَ سَبَبَ ذَلِكَ جَمِيعِهِ إِنَّمَا هُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِ، وَعِصْيَانُ رُسُلِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ عَصْرِهِ، وَمَا أَرَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ نِعْمِهِ، وَجَدَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ سُوءِ عَوَاقِبِ الدُّنُوبِ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْزَعْهَا
وَحَافِظْ عَلَيْهَا بِتَقْوَى الْإِلَهِ
فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تَزِيلُ النِّعَمَ
فَإِنَّ الْإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَمِ^(٣)

* فَمَا حُفِظَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ بِشَيْءٍ قَطُّ مِثْلَ طَاعَتِهِ، وَلَا حَصَلَتْ فِيهَا الزِّيَادَةُ بِمِثْلِ شُكْرِهِ، وَلَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ لِرَبِّهِ؛ فَإِنَّهَا نَارُ النِّعَمِ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا كَمَا تَعْمَلُ النَّارُ فِي الْحَطَبِ الْيَابِسِ، وَمَنْ سَافَرَ بِفِكْرِهِ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ اسْتَعْنَى عَنِ تَعْرِيفِ غَيْرِهِ لَهُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ شُرُورٌ وَلَا بُدَّ.

(١) سُورَةُ الرَّعْدِ، آيَةٌ: (١١).

(٢) سُورَةُ الْأَنْفَالِ، آيَةٌ: (٥٣).

(٣) انْظُرْ: «الدَّاءُ وَالِدَوَاءُ» لِابْنِ الْقَيْمِ (ص ٣٥٥).

* وَأَمَّا كَوْنُ مُسَبِّبَاتِهَا شُرُورًا: فَلِأَنَّهَا آلَامٌ نَفْسِيَّةٌ وَبَدَنِيَّةٌ، فَيَجْتَمِعُ عَلَى صَاحِبِهَا مَعَ شِدَّةِ الْآلَمِ الْحَسِّيِّ أَلَمِ الرُّوحِ بِالْهُمُومِ، وَالْغُمُومِ، وَالْأَحْزَانِ وَالْحَسْرَاتِ؛ وَلَوْ تَفَطَّنَ الْعَاقِلُ اللَّيْبُ لِهَذَا حَقَّ التَّفَطُّنِ لِأَعْطَاهُ حَقَّهُ مِنَ الْحَذَرِ وَالْجَدِّ فِي الْهَرَبِ.

* وَلَكِنْ قَدْ ضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ حِجَابُ الْغَفْلَةِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا. فَلَوْ تَيَقَّنَ حَقَّ التَّيَقُّنِ لَتَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ حَظِّ الْعَاجِلِ وَالْأَجَلِ مِنَ اللَّهِ. وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُ هَذَا حَقِيقَةَ الطُّهُورِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ هَذَا الْعَالَمِ، وَالْإِشْرَافِ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى عَالَمِ الْبَقَاءِ؛ فَحِينَئِذٍ يَقُولُ: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^(١) و﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾^(٢).

* وَلَمَّا كَانَ الشَّرُّ هُوَ الْآلَامُ وَأَسْبَابُهَا، كَانَتْ اسْتِعَاذَاتُ النَّبِيِّ ﷺ جَمِيعُهَا مَدَارُهَا عَلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ؛ فَكُلُّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ أَوْ أَمَرَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ مِنْهُ فَهُوَ إِمَّا مُؤَلِّمٌ، وَإِمَّا سَبَبٌ يُفْضِي إِلَيْهِ. فَكَانَ يَتَعَوَّذُ فِي آخِرِ الصَّلَاةِ مِنْ أَرْبَعٍ، وَأَمَرَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ مِنْهُنَّ، وَهِيَ: (عَذَابُ الْقَبْرِ، وَعَذَابُ النَّارِ)؛ فَهَذَانِ أَعْظَمُ الْمُؤَلِّمَاتِ، (وَفِتْنَةُ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَفِتْنَةُ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ)؛^(٣) وَهَذَانِ سَبَبُ الْعَذَابِ الْمُؤَلِّمِ؛ فَالْفِتْنَةُ سَبَبُ الْعَذَابِ. وَذَكَرَ الْفِتْنَةَ خُصُوصًا، وَذَكَرَ نَوْعِي الْفِتْنَةِ؛ لِأَنَّهَا إِمَّا فِي

(١) سُورَةُ الْفَجْرِ، آيَةٌ: (٢٤).

(٢) سُورَةُ الزُّمَرِ، آيَةٌ: (٥٦).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٣ ص ٢٨٤)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٢ ص ٢٢٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْحَيَاةِ، وَإِمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ. فَفِتْنَةُ الْحَيَاةِ قَدْ يَتَرَاحِي عَنْهَا الْعَذَابُ مُدَّةً، وَأَمَّا فِتْنَةُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ فَيَتَّصِلُ بِهَا الْعَذَابُ مِنْ غَيْرِ تَرَاحٍ.

* فَعَادَتِ الْإِسْتِعَاذَةَ إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْعَذَابِ وَأَسْبَابِهِمَا.

* وَهَذَا مِنْ آكِدِ أَدْعِيَةِ الصَّلَاةِ، حَتَّى أَوْجَبَ بَعْضُ السَّلَفِ، وَالْخَلْفِ الْإِعَادَةَ

عَلَى مَنْ لَمْ يَدْعُ بِهِ فِي التَّشْهَدِ الْأَخِيرِ، وَأَوْجَبَهُ ابْنُ حَزْمٍ فِي كُلِّ تَشْهَدٍ، فَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، لَكِنَّ الرَّاجِحَ: لَا تَبْطُلُ.

وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ

وَالكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدِّينِ، وَعَلَبَةِ الرَّجَالِ).^(١) فَاسْتَعَاذَ مِنْ ثَمَانِيَةِ أَشْيَاءَ كُلِّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِينَانِ.

* فَالْهَمُّ وَالْحُزْنُ قَرِينَانِ، وَهُمَا مِنَ آلامِ الرُّوحِ وَمُعَدَّبَاتِهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا:

أَنَّ الْهَمَّ تَوَقُّعُ الشَّرِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْحُزْنَ: هُوَ التَّأَلُّمُ عَلَى حُصُولِ الْمَكْرُوهِ فِي الْمَاضِي، أَوْ فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، وَكِلَاهُمَا تَأَلُّمٌ وَعَذَابٌ يَرُدُّ عَلَى الرُّوحِ، فَإِنْ تَعَلَّقَ بِالْمَاضِي سُمِّيَ حُزْنًا، وَإِنْ تَعَلَّقَ بِالْمُسْتَقْبَلِ سُمِّيَ هَمًّا.

* وَالْعَجْزُ وَالْكَسَلُ قَرِينَانِ، وَهُمَا مِنْ أَسْبَابِ الْأَلَمِ؛ لِأَنَّهُمَا يَسْتَلْزِمَانِ فَوَاتِ

الْمَحْبُوبِ، فَالْعَجْزُ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْقُدْرَةِ، وَالْكَسَلُ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ إِرَادَتِهِ، فَتَتَأَلَّمُ الرُّوحُ لِفَوَاتِهِ بِحَسَبِ تَعَلُّقِهَا بِهِ، وَالتَّذَاذِهَا بِإِدْرَاكِهِ لَوْ حَصَلَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ١ ص ١٧٧) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.

* وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ قَرِينَانِ؛ لِأَنَّهُمَا عَدَمُ النَّفْعِ بِالْمَالِ وَالْبَدَنِ، وَهُمَا مِنْ أَسْبَابِ الْأَلَمِ؛ لِأَنَّ الْجَبَانَ تَفْوُتُهُ مَحْبُوبَاتُهُ وَمُفْرِحَاتُ وَمَلذُودَاتٌ عَظِيمَةٌ، لَا تُتَأَلَّ إِلَّا بِالْبَذْلِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالْبُخْلُ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، فَهَذَانِ الْخُلُقَانِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْأَلَامِ.

* وَضِلْعُ الدِّينِ، وَقَهْرُ الرَّجَالِ: قَرِينَانِ، وَهُمَا مُؤَلِّمَانِ لِلنَّفْسِ مُعَذِّبَانِ لَهَا. أَحَدُهُمَا: قَهْرٌ بِحَقٍّ، وَهُوَ ضِلْعُ الدِّينِ، وَالثَّانِي: قَهْرٌ بِبَاطِلٍ، وَهُوَ غَلَبَةُ الرَّجَالِ. وَأَيْضًا: فَضْلُ الدِّينِ: قَهْرٌ بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ فِي الْعَالِبِ، وَغَلَبَةُ الرَّجَالِ قَهْرٌ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ.

* وَمِنْ ذَلِكَ: تَعَوُّدُهُ ﷺ (مِنَ الْمَأْتَمِ وَالْمَغْرَمِ) ^(١)، فَإِنَّهُمَا يُسَبِّبَانِ الْأَلَمَ الْعَاجِلَ.

* وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: (أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ) ^(٢) فَالْسُّخْطُ: سَبَبُ الْأَلَمِ، وَالْعُقُوبَةُ: هِيَ الْأَلَمُ، فَاسْتِعَاذٌ مِنْ أَعْظَمِ الْأَلَامِ وَأَقْوَى أَسْبَابِهَا ^(٣).

وَالشَّرُّ الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ نَوْعَانِ:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٢ ص ٣٦٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٢ ص ٢٣٤) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. * وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ شَرَّ الْمَغْرَمِ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ حِينَ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ كَثْرَةِ تَعَوُّدِهِ مِنْهُ فَقَالَ ﷺ: (...إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَّبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٢ ص ١٢٣) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) انظُرْ: «بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ الْجَوْزِيِّ» (ج ٥ ص ٣٨٥)، وَ«تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ (ص ٥١).

أَحَدُهُمَا: مَوْجُودٌ، يُطَلَّبُ رَفْعُهُ.

وَالثَّانِي: مَعْدُومٌ، يُطَلَّبُ بَقَاؤُهُ عَلَى الْعَدَمِ، وَأَنْ لَا يُوجَدَ، كَمَا أَنَّ الْخَيْرَ

الْمُطَلَقَ نَوْعَانِ.

أَحَدُهُمَا: مَوْجُودٌ فَيُطَلَّبُ دَوَامُهُ وَثَبَاتُهُ وَأَنْ لَا يَسْلُبَهُ.

وَالثَّانِي: مَعْدُومٌ فَيُطَلَّبُ وُجُودُهُ وَحُصُولُهُ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ هِيَ أُمَّهَاتُ مَطَالِبِ

السَّائِلِينَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَيْهَا مَدَارُ طَلِبَاتِهِمْ.

* وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْمَطَالِبُ الْأَرْبَعَةُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً؛ عَنْ دُعَاءِ عِبَادِهِ

فِي آخِرِ آلِ عِمْرَانَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا

بِرَبِّكُمْ فَأَمْنَا رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا وَكُفِّرْنَا وَكُفِّرْنَا عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾^(١)؛ فَهَذَا الطَّلَبُ لِدَفْعِ الشَّرِّ

الْمَوْجُودِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ وَالسَّيِّئَاتِ شَرٌّ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَّانُهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ

الْأَبْرَارِ﴾^(٢)؛ فَهَذَا طَلَبٌ لِدَوَامِ الْخَيْرِ الْمَوْجُودِ وَهُوَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتَوَفَّاهُمْ عَلَيْهِ،

فَهَذَا قِسْمَانِ.

* ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾^(٣)؛ فَهَذَا طَلَبٌ لِلْخَيْرِ

الْمَعْدُومِ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤)؛ فَهَذَا طَلَبٌ أَنْ

لَا يُوقَعَ بِهِمُ الشَّرُّ الْمَعْدُومُ وَهُوَ خِزْيُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةٌ: (١٩٣).

(٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةٌ: (١٩٣).

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةٌ: (١٩٤).

(٤) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةٌ: (١٩٤).

* فَانْتَظَمَتِ الْآيَاتَانِ الْمَطَالِبَ الْأَرْبَعَةَ أَحْسَنَ انْتِظَامٍ، مَرْتَبَةً أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ؛
قَدْ مَ فِيهَا النَّوْعَانِ اللَّذَانِ فِي الدُّنْيَا، وَهُمَا الْمَغْفِرَةُ وَدَوَامُ الْإِسْلَامِ إِلَى الْمَوْتِ، ثُمَّ
أَتْبَعَا بِالنَّوْعَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُمَا أَنْ يُعْطُوا مَا وَعَدُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ،
وَأَنْ لَا يُخْزِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

* فَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَقَوْلُهُ ﷺ، فِي تَشْهَدِ الْخُطْبَةِ: (وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا) (١)، يَتَنَاوَلُ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ، الَّذِي هُوَ مَعْدُومٌ
لَكِنَّهُ فِيهَا بِالْقُوَّةِ، فَيَسْأَلُ دَفْعَهُ وَأَنْ لَا يُوجَدَ.

* وَلَمَّا كَانَ الشَّرُّ لَهُ سَبَبٌ: هُوَ مَصْدَرُهُ، وَلَهُ مَوْرِدٌ وَمُنْتَهَى، وَكَانَ السَّبَبُ:

(١) إِمَّا مِنْ ذَاتِ الْعَبْدِ.

(٢) وَإِمَّا مِنْ خَارِجٍ.

وَمَوْرِدِهِ وَمُنْتَهَاهُ:

(١) إِمَّا مِنْ نَفْسِهِ.

(٢) وَإِمَّا مِنْ غَيْرِهِ.

كَانَ هُنَاكَ أَرْبَعَةٌ أُمُورٍ:

(١) شَرُّ مَصْدَرُهُ مِنْ نَفْسِهِ:

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٦ ص ١٥٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٣ ص ٤١١)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ١ ص ٢٩)، وَأَحْمَدُ

فِي «الْمُسْنَدِ» (٣٧٢٠)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ١ ص ٥٨٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَيَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ تَارَةً،

وَعَلَى غَيْرِهِ أُخْرَى.

(٢) وَشَرُّ مَصْدَرُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ السَّبَبُ فِيهِ:

وَيَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ تَارَةً،

وَعَلَى غَيْرِهِ أُخْرَى.

* جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ: هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الْأَرْبَعَةَ، فِي الدُّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَهُ الصِّدِّيقَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَقُولَهُ إِذَا أَصْبَحَ، وَإِذَا أَمْسَى وَإِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ: (اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَهِ وَأَنْ أَفْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ
أَجْرُهُ إِلَى مُسْلِمٍ)^(١).

فَذَكَرَ مَصْدَرِي الشَّرِّ، وَهُمَا:

النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ.

* وَذَكَرَ مُورَدِيهِ وَنَهَائِيَّتِيهِ، وَهُمَا عَوْدُهُ عَلَى النَّفْسِ، أَوْ عَلَى أَحِيهِ الْمُسْلِمِ،

فَجَمَعَ الْحَدِيثَ مَصَادِرَ الشَّرِّ، وَمَوَارِدَهُ فِي أَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرَهُ، وَأَجْمَعَهُ وَأَبَيَّنَهُ^(٢).

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ١٣ ص ٤٠٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٥ ص ٤٣٥)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى»
(ج ٤ ص ٤٠٨)، وَالبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (ج ٢ ص ٦٨٢)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (ج ٩ ص ٧٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) انظُرْ: «بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ الْجَوْزِيِّ» (ج ٥ ص ٣٨٨).

* فَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَلْتَتَكَلَّمْ عَلَى الشُّرُورِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهَا فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ:
الشَّرُّ الْأَوَّلُ: الشَّرُّ الْعَامُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾... وَالشَّرُّ مُسْنَدٌ فِي
الآيَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِ.

* وَقَدْ دَخَلَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي
أَيِّ مَخْلُوقٍ قَامَ بِهِ الشَّرُّ مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ غَيْرِهِ، إِنْسِيًّا كَانَ أَوْ جِنِّيًّا، أَوْ هَامَّةً أَوْ دَابَّةً، أَوْ
رِيحًا أَوْ صَاعِقَةً، أَيْ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ.

* وَ(مَا): هُنَا فِيهَا عُمُومٌ تَقْيِيدِيٌّ وَصَفِيٌّ، لَا عُمُومٌ إِطْلَاقِيٌّ.

وَالْمَعْنَى: مِنْ شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ، فَعُمُومُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

* وَكَيْسَ الْمُرَادُ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا لَيْسَ
فِيهَا شَرٌّ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ حَصَلَ عَلَى
أَيْدِيهِمْ.

* فَالْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَعُمُّ شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَشَرُّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَشَرُّ السَّبَاعِ وَالْهُوَامِّ، وَشَرُّ النَّارِ
وَالْهُوَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ
مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ) ^(١).

الشَّرُّ الثَّانِي: شَرُّ الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ: فَهَذَا خَاصٌّ بَعْدَ عَامٍّ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٤ ص ٢٠٨٠) مِنْ حَدِيثِ حَوَلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَقَدْ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ اللَّيْلُ.

وَالْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ: اللَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ وَدَخَلَ، وَالْوُقُوبُ: الدُّخُولُ، وَهُوَ دُخُولُ

اللَّيْلِ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ.

قُلْتُ: وَلَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الْقَمَرِ، لِأَنَّ الْقَمَرَ هُوَ آيَةُ اللَّيْلِ وَسُلْطَانُهُ فِيهِ.

فَهُوَ مِنَ اللَّيْلِ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَقٌّ، وَلَا يُنَافِضُ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ، فَكِلَاهُمَا غَاسِقٌ.

وَتَبَّتْ هَذَا التَّفْسِيرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِي، فَنَظَرَ إِلَيَّ الْقَمَرَ، فَقَالَ: (يَا

عَائِشَةُ، اسْتَعِيزِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ) (١).

* وَالسَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ اللَّيْلِ، وَشَرِّ الْقَمَرِ إِذَا

وَقَبَ هُوَ أَنَّ اللَّيْلَ إِذَا أَقْبَلَ فَهُوَ مَحَلُّ سُلْطَانِ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَفِيهِ تَنْشُرُ

الشَّيَاطِينَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ الشَّمْسَ إِذَا غَرَبَتْ انْتَشَرَتِ الشَّيَاطِينُ) (٢). وَلِهَذَا قَالَ:

(فَاكْفُتُوا صِبْيَانَكُمْ وَاحْبِسُوا مَوَاشِيَكُمْ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ)، وَفِي حَدِيثِ

آخَرَ (فَإِنَّ اللَّهَ يَبِثُّ مِنْ خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ).

(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ.

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٥ ص ٤٢١)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (ج ٢ ص ٦٢٣)، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (ج ٦ ص ٦١)،

وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (ج ٢ ص ٥٤٠)؛ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٣ ص ١٥٩٥) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاللَّيْلِ: هُوَ مَحَلُّ الظَّلَامِ، وَفِيهِ تَسَلَّطَ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مَا لَا تَسَلَّطُ
بِالنَّهَارِ، فَإِنَّ النَّهَارَ نُورٌ، وَالشَّيَاطِينُ إِنَّمَا سُلْطَانُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ، وَالْمَوَاضِعِ
الْمُظْلَمَةِ، وَعَلَى أَهْلِ الظُّلْمَةِ.

* وَلِهَذَا كَانَ سُلْطَانُ السَّحْرِ، وَعَظْمُ تَأْثِيرِهِ، إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ دُونَ النَّهَارِ،
فَالسَّحْرُ اللَّيْلِيُّ عِنْدَهُمْ: هُوَ السَّحْرُ الْقَوِيُّ التَّأْثِيرِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْقُلُوبُ الْمُظْلَمَةُ
هِيَ مَحَالُّ الشَّيَاطِينِ وَبُيُوتُهُمْ وَمَاوَاهُمْ، وَالشَّيَاطِينُ تَجُولُ فِيهَا، وَتَحَكَّمُ كَمَا
يَتَحَكَّمُ سَاكِنُ الْبَيْتِ فِيهِ، وَكَلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَظْلَمَ كَانَ لِلشَّيْطَانِ أَطْوَعٌ، وَهُوَ فِيهِ
أَثْبَتٌ وَأَمْكَنٌ.

وَمِنْ هُنَا: تَعَلَّمَ السَّرُّ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ بِرَبِّ الْفَلَقِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَيْضًا.
* فَإِنَّ الْفَلَقَ: هُوَ: (الصُّبْحُ)، الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ ظُهُورِ النُّورِ، وَهُوَ الَّذِي يَطْرُقُ
جَيْشَ الظَّلَامِ، وَعَسْكَرَ الْمُفْسِدِينَ فِي اللَّيْلِ، فَيَأْوِي كُلَّ خَبِيثٍ، وَكُلَّ مُفْسِدٍ، وَكُلَّ
لِصٍّ، وَكُلَّ قَاطِعِ طَرِيقٍ سَرَبٍ، أَوْ كِنٍّ أَوْ غَارٍ، وَتَأْوِي الْهَوَامَّ إِلَى أَحْجَرَتِهَا،
وَالشَّيَاطِينُ الَّتِي انْتَشَرَتْ بِاللَّيْلِ إِلَى أَمْكِنَتِهَا وَمَحَالِّهَا^(١).

* فَأَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِرَبِّ النُّورِ الَّذِي يَقْهَرُ الظُّلْمَةَ وَيُزِيلُهَا.
* فَتَأَمَّلِ الْإِسْتِعَاذَةَ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ الظُّلْمَةِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَحْدُثُ فِيهَا،
وَنُزِّلَ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى الْوَاقِعِ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ، بَلْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ، مِنْ أَعْظَمِ

(١) انظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤٠٢)، و«تفسير سورة الفلق» للشيخ محمد بن عبد
الوهاب (ص ١٨).

أَعْلَامِ النَّبُوَّةِ، وَبَرَاهِينِ صِدْقِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُضَادَّتِهِ لِمَا جَاءَ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ فَمَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَلِيقُ بِهِمْ، وَلَا يَتَأْتَى مِنْهُمْ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ.

وَفِي هَذَا أَبِينُ جَوَابٍ وَأَشْفَاهُ...

* فَظَهَرَتْ حِكْمَةُ الْإِسْتِعَاذَةِ بِرَبِّ الْفَلَقِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، وَظَهَرَ بِهَذَا إِعْجَازُ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتُهُ وَجَلَالَتُهُ، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَقْدِرُونَ قَدْرَهُ، وَأَنَّهُ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

الشَّرُّ الثَّلَاثُ: شَرُّ النَّفَّاتِ فِي الْعُقَدِ.

وَهَذَا الشَّرُّ: هُوَ شَرُّ السَّحْرِ، فَإِنَّ النَّفَّاتِ فِي الْعُقَدِ: هُنَّ السَّوَاحِرُ اللَّاتِي يَعْقِدْنَ الْخُيُوطَ، وَيَنْفُثْنَ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ، حَتَّى يَنْعَقِدَ مَا يُرَادُ مِنَ السَّحْرِ.

وَالنَّفْثُ: هُوَ النَّفْخُ مَعَ رِيْقٍ، وَهُوَ دُونَ التَّفْلِ، وَهُوَ مَرْتَبَةٌ بَيْنَهُمَا.

وَالنَّفْثُ: فِعْلُ السَّاحِرِ، فَإِذَا تَكَيَّفَتْ نَفْسُهُ بِالْخَبْثِ وَالشَّرِّ الَّذِي يُرِيدُهُ بِالْمَسْحُورِ، وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِالْأَرْوَاحِ الْخَبِيثَةِ؛ نَفَخَ فِي تِلْكَ الْعُقَدِ نَفْخًا مَعَهُ رِيْقٌ، فَيَخْرُجُ مِنْ نَفْسِهِ الْخَبِيثَةُ نَفْسٌ مُمَارِجٌ لِلشَّرِّ وَالْأَذَى، مُقْتَرِنٌ بِالرِّيْقِ الْمُمَارِجِ لِذَلِكَ.

* وَقَدْ تَسَاعَدَ هُوَ وَالرُّوحُ الشَّيْطَانِيَّةُ عَلَى أَذَى الْمَسْحُورِ؛ فَيَقَعُ فِيهِ السَّحْرُ بِإِذْنِ اللَّهِ الْكَوْنِيِّ الْقَدَرِيِّ، لَا الْأَمْرِيِّ الشَّرْعِيِّ.

(١) سُورَةُ فَصَّلَتْ، آيَةٌ: (٤٢).

وَالْمَسْحُورُ: هُوَ مِنْ سُحْرِ حَتَّى جُنَّ.

وَهُوَ الَّذِي فَسَدَ عَقْلُهُ، بِحَيْثُ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ: فَهُوَ كَالْمَجْنُونِ.

الشَّرُّ الرَّابِعُ: شَرُّ الْحَاسِدِ إِذَا حَسَدَ.

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَنَّ نَفْسَ حَسَدِ الْحَاسِدِ يُؤْذِي الْمَحْسُودَ، فَنَفْسُ

حَسَدِهِ شَرٌّ مُتَّصِلٌ بِالْمَحْسُودِ مِنْ نَفْسِهِ وَعَيْنِهِ، وَإِنْ لَمْ يُؤْذِهِ بِيَدِهِ وَلَا لِسَانِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فَحَقَّقَ الشَّرَّ مِنْهُ عِنْدَ صُدُورِ الْحَسَدِ.

* وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَاسِدَ لَا يُسَمَّى حَاسِدًا، إِلَّا إِذَا قَامَ بِهِ الْحَسَدُ... وَلَكِنْ قَدْ

يَكُونُ الرَّجُلُ فِي طَبَعِهِ الْحَسَدُ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الْمَحْسُودِ، لَاهِ عَنْهُ، فَإِذَا خَطَرَ عَلَى

ذِكْرِهِ وَقَلْبِهِ انْبَعَثَتْ نَارُ الْحَسَدِ مِنْ قَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ سَهَامُ الْحَسَدِ مِنْ قَلْبِهِ،

فَيَتَأَذَى الْمَحْسُودُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَيَتَحَصَّنْ بِهِ، وَيَكُونُ لَهُ أَوْرَادٌ

مِنَ الْأَذْكَارِ وَالِدَّعَوَاتِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، بِحَيْثُ يُدْفَعُ عَنْهُ مِنْ شَرِّهِ

بِمَقْدَارِ تَوَجُّهِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ وَإِلَّا نَالَهُ شَرُّ الْحَاسِدِ وَلَا بُدَّ.

* فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾، بَيَانٌ لِأَنَّ شَرَّهُ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ الْحَسَدُ

بِالْفِعْلِ^(١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِئَةُ جِبْرِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهَا: (بِسْمِ اللَّهِ

أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ)^(٢).

(١) انظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤١٤)، و«تفسير سورة الفلق» للشيخ محمد بن عبد

الوهاب (ص ٢٥)، و«الصوة المبيزة على التفسير» للصالحى (ج ٦ ص ٥٢١).

فَهَذَا فِيهِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ عَيْنِ الْحَاسِدِ.

* وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَيْنَهُ لَا تُؤَثِّرُ بِمَجْرَدِهَا، إِذْ لَوْ نَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ لَاهِ سَاهٍ عَنْهُ، كَمَا يُنْظَرُ إِلَى الْأَرْضِ وَالْجَبَلِ وَغَيْرِهِ، لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ مَنْ قَدْ تَكَيَّفَتْ نَفْسُهُ الْخَبِيثَةَ وَانْسَمَّتْ، وَاحْتَدَّتْ فَصَارَتْ نَفْسًا غَضَبِيَّةً خَبِيثَةً حَاسِدَةً، أَثَرَتْ بِهَا تِلْكَ النَّظْرَةَ، فَأَثَرَتْ فِي الْمَحْسُودِ تَأْثِيرًا بِحَسَبِ صِفَةِ ضَعْفِهِ، وَقُوَّةِ نَفْسِ الْحَاسِدِ، فَرُبَّمَا أَعْطَبَهُ وَأَهْلَكَهُ... وَرُبَّمَا صَرَعه وَأَمْرَضَهُ...

* وَهَذِهِ الْعَيْنُ إِنَّمَا تَأْثِيرُهَا بِوَاسِطَةِ النَّفْسِ الْخَبِيثَةِ... وَالْأَرْوَاحِ الشَّرِيرَةِ...

* وَهَذَا عِلْمٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا خَوَاصُّ النَّاسِ، وَالْمَحْجُوبُونَ مُنْكَرُونَ لَهُ...

* وَالْعَايِنُ وَالْحَاسِدُ يَشْتَرِكَانِ فِي شَيْءٍ، وَيَفْتَرِقَانِ فِي شَيْءٍ.

* فَيَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تَكَيَّفَ نَفْسَهُ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ مَنْ يُرِيدُ

أَذَاهُ.

فَالْعَايِنُ: تَكَيَّفَ نَفْسَهُ عِنْدَ مُقَابَلَةِ الْمُعَيَّنِ وَمُعَايِنَتِهِ.

وَالْحَاسِدُ: يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ عِنْدَ غِيَةِ الْمَحْسُودِ وَحُضُورِهِ أَيْضًا.

* وَيَفْتَرِقَانِ فِي أَنَّ الْعَايِنَ قَدْ يُصِيبُ مَنْ لَا يَحْسُدُهُ، مِنْ جَمَادٍ أَوْ حَيَوَانٍ، أَوْ

زَرْعٍ أَوْ مَالٍ، وَإِنْ كَانَ لَا يَكَادُ يَنْفَكُ مِنْ حَسَدِ صَاحِبِهِ، وَرُبَّمَا أَصَابَتْ عَيْنُهُ نَفْسَهُ،

فَإِنَّ رُؤْيَتَهُ لِلشَّيْءِ رُؤْيَةٌ تَعْجَبٌ وَتَحْدِيقٌ، مَعَ تَكَيَّفِ نَفْسِهِ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ تُؤَثِّرُ فِي

الْعَيْنِ... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾^(١) إِنَّهُ الْإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ، أَرَادُوا أَنْ يُصِيبُوا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

قُلْتُ: النَّظَرُ الَّذِي يُؤْتَرُ فِي الْمَنْظُورِ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ شِدَّةُ الْعِدَاوَةِ وَالْحَسَدِ فَيُؤْتَرُ نَظَرُهُ فِيهِ، كَمَا تُؤْتَرُ نَفْسُهُ بِالْحَسَدِ، وَيَقْوَى تَأْثِيرُ النَّفْسِ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ، فَإِنَّ الْعِدُوَّ إِذَا غَابَ عَنِ عَدُوٍّ فَقَدْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ عَنْهُ، فَإِذَا عَايَنَهُ قَبْلًا اجْتَمَعَتِ الْهَمَّةُ عَلَيْهِ، وَتَوَجَّهَتِ النَّفْسُ بِكَلْبَتِهَا إِلَيْهِ، فَيَتَأَثَّرُ بِنَظَرِهِ، حَتَّى إِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْقُطُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحِمُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِهِ، وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا...

* وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْإِعْجَابُ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ بِإِصَابَةِ الْعَيْنِ، وَهُوَ أَنَّ النَّاطِرَ يَرَى الشَّيْءَ رُؤْيَاً إِعْجَابٍ بِهِ أَوْ اسْتِعْظَامٍ، فَتَتَكَيَّفُ رُوحُهُ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَّةٍ تُؤْتَرُ فِي الْمُعَيَّنِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَاً الْمُعَيَّنِ؛ فَإِنَّهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ الشَّيْءَ وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ فَيَصَابُ بِذَلِكَ...

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْعَائِنَ حَاسِدٌ خَاصٌّ، وَهُوَ أَضَرُّ مِنَ الْحَاسِدِ، وَلِهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِنَّمَا جَاءَ فِي السُّورَةِ ذِكْرُ الْحَاسِدِ دُونَ الْعَائِنِ، لِأَنَّهُ أَعَمُّ، فَكُلُّ عَائِنٍ حَاسِدٌ وَلَا بُدَّ، وَلَيْسَ كُلُّ حَاسِدٍ عَائِنًا، فَإِذَا اسْتَعَاذَ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ دَخَلَ فِيهِ الْعَائِنُ، وَهَذَا مِنْ شُمُولِ الْقُرْآنِ، وَإِعْجَازِهِ، وَبَلَاغَتِهِ.

وَأَصْلُ الْحَسَدِ: هُوَ بُغْضُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمَحْسُودِ، وَتَمَنِّي زَوَالِهَا.

(١) سُورَةُ الْقَلَمِ، آيَةٌ: (٥١).

* فَالْحَاسِدُ عَدُوُّ النَّعْمِ، وَهَذَا الشَّرُّ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ وَطَبَعِهَا، لَيْسَ هُوَ شَيْئًا اِكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِهَا، بَلْ هُوَ مِنْ خُبْنِهَا وَشَرِّهَا. بِخِلَافِ السَّحْرِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِاِكْتِسَابِ أُمُورٍ أُخْرَى، وَاسْتِعَانَةِ بِالْأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ. فَلِهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ قَرَنَ فِي السُّورَةِ بَيْنَ شَرِّ الْحَاسِدِ، وَشَرِّ السَّاحِرِ، لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ هَذَيْنِ تَعْمُ كُلُّ شَرِّ يَأْتِي مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَالْحَسَدُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَالسَّحْرُ مِنَ النَّوعَيْنِ.

* وَبَقِيَ قِسْمٌ يَنْفَرِدُ بِهِ شَيَاطِينُ الْجِنِّ، وَهُوَ الْوَسْوَاسَةُ فِي الْقَلْبِ، فَذَكَرَهُ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى، كَمَا سَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَالْحَاسِدُ وَالسَّاحِرُ يُؤْذِيَانِ الْمَحْسُودَ وَالْمَسْحُورَ بِلَا عَمَلٍ مِنْهُ، بَلْ هُوَ أَدَّى مِنْ أَمْرِ خَارِجٍ عَنْهُ، فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الذِّكْرِ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ.

وَالْوَسْوَاسُ: إِنَّمَا يُؤْذِي الْعَبْدَ مِنْ دَاخِلٍ بِوَأَسْطَةِ مُسَاكَّتِهِ لَهُ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ، وَلِهَذَا يُعَاقَبُ الْعَبْدُ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي يُؤْذِيهِ بِهِ الشَّيْطَانُ مِنَ الْوَسْوَاسِ الَّتِي تَقْتَرِنُ بِهَا الْأَفْعَالُ، وَالْعَزْمُ الْجَازِمُ، لِأَنَّ ذَلِكَ بِسَعْيِهِ وَإِرَادَتِهِ، بِخِلَافِ شَرِّ الْحَاسِدِ وَالسَّاحِرِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِذْ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ كَسْبُهُ وَلَا إِرَادَتِهِ، فَلِهَذَا أَفْرَدَ شَرَّ الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ، وَقَرَنَ بَيْنَ شَرِّ السَّاحِرِ وَالْحَاسِدِ فِي سُورَةِ، وَكَثِيرًا مَا يَجْتَمِعُ فِي الْقُرْآنِ الْحَسَدُ وَالسَّحْرُ لِلْمُنَاسَبَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الْيَهُودُ أَسْحَرَ النَّاسِ وَأَحْسَدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَشِدَّةِ خُبْنِهِمْ: فِيهِمْ مِنَ السَّحْرِ وَالْحَسَدِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِمْ. وَقَدْ وَصَفَهُمْ

اللَّهُ فِي كِتَابِهِ بِهِذَا وَهَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(١).

* إِذِ الْمَقْصُودُ الْكَلَامُ عَلَىٰ أَسْرَارِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ وَشِدَّةُ حَاجَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِمَا، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ غَيْرُهُمَا مَقَامَهُمَا.

* وَالشَّيْطَانُ يُقَارَنُ السَّاحِرَ وَالْحَاسِدَ، وَيُحَادِثُهُمَا وَيُصَاحِبُهُمَا، وَلَكِنَّ الْحَاسِدَ تُعِينُهُ الشَّيَاطِينُ بِلَا اسْتِدْعَاءٍ مِنْهُ لِلشَّيْطَانِ، لِأَنَّ الْحَاسِدَ شَبِيهُ بِإِبْلِيسَ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَتْبَاعِهِ، لِأَنَّهُ يَطْلُبُ مَا يُحِبُّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ فَسَادِ النَّاسِ، وَزَوَالَ نِعْمِ اللَّهِ عَنْهُمْ، كَمَا أَنَّ إِبْلِيسَ حَسَدَ آدَمَ لِشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ حَسَدًا، فَالْحَاسِدُ مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ. وَأَمَّا السَّاحِرُ فَهُوَ يَطْلُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ يُعِينَهُ وَيُسْتَعِينَهُ، وَرَبَّمَا يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَتَّىٰ يَقْضِيَ لَهُ حَاجَتَهُ، وَرَبَّمَا يَسْجُدُ لَهُ.

* وَفِي كُتُبِ السِّحْرِ وَالسَّرِّ الْمَكْتُومِ مِنْ هَذَا عَجَائِبُ، وَلِهَذَا كَلَّمَا كَانَ السَّاحِرُ أَكْفَرَ وَأَخْبَثَ وَأَشَدَّ مُعَادَاةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ سِحْرُهُ أَقْوَىٰ وَأَنْفَذَ.

* وَكَانَ سِحْرُ عِبَادِ الْأَصْنَامِ أَقْوَىٰ مِنْ سِحْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَسِحْرُ الْيَهُودِ أَقْوَىٰ مِنْ سِحْرِ الْمُتَسَبِّينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ الَّذِينَ سَحَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ السَّاحِرَ وَالْحَاسِدَ كُلُّ مِنْهُمَا قَصْدُهُ الشَّرُّ، لَكِنَّ الْحَاسِدَ بِطَبْعِهِ وَنَفْسِهِ وَبُغْضِهِ لِلْمَحْسُودِ، وَالشَّيْطَانُ يَقْتَرِنُ بِهِ وَيُعِينُهُ، وَيَزِينُ لَهُ حَسَدَهُ، وَيَأْمُرُهُ بِمُوجِبِهِ، وَالسَّاحِرُ بِعِلْمِهِ، وَكَسْبِهِ، وَشَرِكِهِ، وَاسْتِعَانَتِهِ بِالشَّيَاطِينِ.
وَلِلْحَسَدِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ:

أَحَدُهَا: تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ، فَهَذَا حَسَدٌ عَلَى شَيْءٍ مُحَقَّقٍ.
وَالثَّانِيَةُ: تَمَنِّي اسْتِصْحَابِ عَدَمِ النِّعْمَةِ، فَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يُحْدِثَ اللَّهُ لِعَبْدِهِ نِعْمَةً، بَلْ يُحِبُّ أَنْ يَبْقَى عَلَى حَالِهِ مِنْ جَهْلِهِ أَوْ فَقْرِهِ، أَوْ ضَعْفِهِ أَوْ شَتَاتِ قَلْبِهِ عَنِ اللَّهِ، أَوْ قَلَّةِ دِينِهِ، فَهُوَ يَتَمَنَّى دَوَامَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، فَهَذَا حَسَدٌ عَلَى شَيْءٍ مُقَدَّرٍ، وَالْأَوَّلُ كَمَا تَقَدَّمَ حَسَدٌ عَلَى شَيْءٍ مُحَقَّقٍ.

* وَكِلَاهُمَا حَاسِدٌ، عَدُوٌّ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَعَدُوٌّ عِبَادِهِ، وَمَمَقُوتٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَ النَّاسِ وَلَا يَسُودُ أَبَدًا وَلَا يُوَاسِي؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يُسَوِّدُونَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ يُرِيدُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، فَأَمَّا عَدُوٌّ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَلَا يُسَوِّدُونَهُ بِاخْتِيَارِهِمْ أَبَدًا، إِلَّا قَهْرًا، يَعُدُّونَهُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمَصَائِبِ الَّتِي ابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَا، فَهُمْ يُبْغِضُونَهُ وَهُوَ يُبْغِضُهُمْ.

وَالْحَسَدُ الثَّلَاثُ: حَسَدُ الْغِبْطَةِ، وَهُوَ تَمَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ حَالِ الْمَحْسُودِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَزُولَ النِّعْمَةُ عَنْهُ. فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا يُعَابُ صَاحِبُهُ، بَلْ هَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْمُنَافَسَةِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(١).

(١) سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ، آيَةٌ: (٢٦).

* فَهَذِهِ السُّورَةُ مِنْ فَهَذِهِ السُّورَةِ مِنْ أَكْبَرِ أَدْوِيَةِ الْحَسَدِ، فَإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، وَالِالْتِجَاءَ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنْ شَرِّ حَاسِدِ النِّعْمَةِ، فَهُوَ مُسْتَعِيدٌ بِوَلِيِّ النِّعْمِ وَمَوْلِيهَا.

* كَأَنَّهُ يَقُولُ: (يَا مَنْ أَوْلَانِي نِعْمَةً وَأَسَدَاهَا إِلَيَّ، أَنَا عَائِدٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَلْبَهَا مِنِّي، وَيُزِيلَهَا عَنِّي).

* وَيَنْدَفِعُ شَرُّ الْحَاسِدِ مِنَ الْمَحْسُودِ بِعَشْرَةِ أَسْبَابٍ: أَحَدُهَا: التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ، وَالتَّحَصُّنُ بِهِ وَاللُّجُوءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لِاسْتِعَاذَتِهِ، عَلِيمٌ بِمَا يَسْتَعِيدُ مِنْهُ.

* وَالسَّمْعُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ: (سَمْعُ الْإِجَابَةِ)، لَا السَّمْعُ الْعَامُّ.

فَهُوَ مِثْلُ: قَوْلِهِ (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)، وَقَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ

الدُّعَاءُ﴾^(١).

السَّبَبُ الثَّانِي: تَقْوَى اللَّهِ، وَحِفْظُهُ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَوَلَّى اللَّهُ

حِفْظَهُ، وَلَمْ يَكِلْهُ إِلَى غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْئًا﴾^(٢).

(١) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ، آيَةٌ: (٣٩).

(٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةٌ: (١٢٠).

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: الصَّبْرُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَا يُقَاتِلَهُ وَلَا يَشْكُوهُ، وَلَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَذَاهُ أَصْلًا؛ فَمَا نَصَرَ عَلَى حَاسِدِهِ وَعَدُوِّهِ بِمِثْلِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: التَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ؛ أَيَّ كَافِيهِ. وَالتَّوَكَّلُ: مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الَّتِي يَدْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مَا لَا يُطِيقُ مِنْ أَدَى الْخَلْقِ وَظَلْمِهِمْ وَعَدْوَانِهِمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: ذِكْرُ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنْدَفِعُ بِهَا شَرُّ الْحَاسِدِ، وَالْعَائِنِ وَالسَّاحِرِ وَالْبَاغِي.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: فَرَاغُ الْقَلْبِ مِنَ الْإِشْتِغَالِ بِهِ وَالْفِكْرِ فِيهِ، وَأَنْ يَقْصِدَ أَنْ يَمَحُوهُ مِنْ بَالِهِ كُلَّمَا خَطَرَ لَهُ؛ فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَخَافُهُ، وَلَا يَمَلَأُ قَلْبَهُ بِالْفِكْرِ فِيهِ.

* وَهَذَا مِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَأَقْوَى الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى انْدِفَاعِ شَرِّهِ. السَّبَبُ السَّادِسُ: وَهُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ، وَجَعْلُ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ فِي مَحَلِّ خَوَاطِرِ نَفْسِهِ وَأَمَانِيهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٢).

(١) سُورَةُ الطَّلَاقِ، آيَةٌ: (٣).

(٢) سُورَةُ الْحَجَرِ، آيَةٌ: (٤٢).

* وَقَالَ فِي حَقِّ الصِّدِّيقِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»^(١).

السَّبَبُ السَّابِعُ: تَجْرِيدُ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي سَلَطَهَا عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ.

قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»^(٢).

فَمَا سُلِّطَ عَلَى الْعَبْدِ مَنْ يُؤْذِيهِ إِلَّا بِذَنْبٍ يَعْلَمُهُ أَوْ لَا يَعْلَمُهُ...

السَّبَبُ الثَّامِنُ: الصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ مَا أَمَكَّنَهُ؛ فَإِنَّ لِدَلِكِ تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي دَفْعِ

الْبَلَاءِ، وَدَفْعِ الْعَيْنِ، وَشَرِّ الْحَاسِدِ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: وَهُوَ مِنْ أَصْعَبِ الْأَسْبَابِ عَلَى النَّفْسِ، وَأَشَقَّهَا عَلَيْهَا، وَلَا

يُوقَفُ لَهُ إِلَّا مَنْ عَظَّمَ حَظَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ إِطْفَاءُ نَارِ الْحَاسِدِ وَالْبَاغِي وَالْمُؤْذِي

بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ؛ فَكَلَّمَا زَادَ أَدَى وَبَغِيًّا وَحَسَدًا زَادَتْ إِلَيْهِ إِحْسَانًا.

* فَاسْمَعِ الْآنَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٣).

(١) سُورَةُ يُوسُفَ، آيَةٌ: (٢٤).

(٢) سُورَةُ الشُّورَى، آيَةٌ: (٣٠).

(٣) سُورَةُ فَصَّلَتْ، آيَةٌ: (٣٤-٣٦).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١).

السَّبَبُ الْعَاشِرُ: وَهُوَ الْجَامِعُ لِذَلِكَ كُلِّهِ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَهُوَ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ.

* فَإِذَا جَرَّدَ الْعَبْدُ التَّوْحِيدَ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ خَوْفٌ مَا سِوَاهُ، وَكَانَ عَدُوَّهُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخَافَهُ مَعَ اللَّهِ، بَلْ يُفْرِدُ اللَّهَ بِالْمَخَافَةِ وَقَدْ أَمَنَهُ مِنْهُ، وَخَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ اهْتِمَامُهُ بِهِ، وَاشْتِعَالُهُ بِهِ وَفِكْرُهُ فِيهِ، وَتَجَرَّدَ لِلَّهِ مَحَبَّةً وَخَشْيَةً، وَإِنَابَةً وَتَوَكُّلاً وَاشْتِعَالًا بِهِ عَنْ غَيْرِهِ...

فَالتَّوْحِيدُ: حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمِينِينَ.

* هَذِهِ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ يَنْدَفِعُ بِهَا شَرُّ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ وَالسَّاحِرِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ وَثِقَتِهِ بِهِ، وَأَنْ لَا يَخَافَ مَعَهُ غَيْرَهُ، بَلْ يَكُونُ خَوْفُهُ مِنْهُ وَحْدَهُ وَلَا يَرْجُو سِوَاهُ، بَلْ يَرْجُوهُ وَحْدَهُ، فَلَا يُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَسْتَعِيْثُ بِسِوَاهُ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا إِيَّاهُ؛ وَمَتَى عَلَّقَ قَلْبَهُ بِغَيْرِهِ وَرَجَاهُ وَخَافَهُ وَكَلَّ إِلَيْهِ وَخَذَلَ مِنْ جِهَتِهِ، فَامِنْ خَافَ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ سُلِّطَ عَلَيْهِ، وَمَنْ رَجَا شَيْئًا سِوَى اللَّهِ خَذَلَ مِنْ جِهَتِهِ وَحَرَّمَ خَيْرَهُ. هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ^(٢).

(١) سُورَةُ الْقَصَصِ، آيَةٌ: (٥٤).

(٢) انظُرْ: «بَدَائِعُ التَّفْسِيرِ الْجَامِعِ لِتَفْسِيرِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ الْجَوَزِيِّ» (ج ٥ ص ٤١٦ ٤٢٥)، وَ«تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّاسِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ (ص ٥٠)، وَ«الصُّوَّةُ الْمُتَبَيِّرُ عَلَى التَّفْسِيرِ» لِلصَّالِحِيِّ (ج ٦ ص ٥٣١).

* وَلَا يُمَكِّنُ حَصْرُ أَجْنَاسٍ شَرِّهِ، فَضْلًا عَنْ أَحَادِهَا، إِذْ كُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ فَهُوَ السَّبَبُ فِيهِ، وَلَكِنْ يَنْحَصِرُ شَرُّهُ فِي سِتَّةِ أَجْنَاسٍ، لَا يَزَالُ بَابِنِ آدَمَ حَتَّى يَنَالَ مِنْهُ وَاحِدًا مِنْهَا أَوْ أَكْثَرَ:

الشَّرُّ الْأَوَّلُ: شَرُّ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ، وَمُعَادَاةُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ؛ فَإِذَا ظَفَرَ بِذَلِكَ مِنْ ابْنِ آدَمَ بَرَدَ أُنْيُنُهُ، وَاسْتَرَاحَ مِنْ تَعَبِهِ مَعَهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُرِيدُ مِنَ الْعَبْدِ، فَلَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَنَالَ مِنْهُ، فَإِذَا نَالَ ذَلِكَ صَيَّرَهُ مِنْ جُنْدِهِ وَعَسْكَرِهِ... فَصَارَ مِنْ دُعَاةِ إِبْلِيسَ وَنَوَابِهِ... فَإِنْ يَيْتَسَ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ مِمَّنْ سَبَقَ لَهُ الْإِسْلَامُ فِي بَطْنِ أُمَّهِ نَقَلَهُ إِلَى:

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: مِنَ الشَّرِّ، وَهِيَ الْبِدْعَةُ، وَهِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْفُسُوقِ وَالْمَعَاصِي؛ لِأَنَّ ضَرَرَهَا فِي نَفْسِ الدِّينِ، وَهُوَ ضَرَرٌ مُتَعَدِّدٌ، وَهِيَ ذَنْبٌ لَا يُتَابُ مِنْهُ^(١)، وَهُوَ مُخَالَفَةُ لِدْعَوَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ... وَهِيَ بَابُ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ؛ فَإِذَا نَالَ مِنْهُ الْبِدْعَةَ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَهْلِهَا صَارَ أَيْضًا نَائِبَهُ وَدَاعِيًا مِنْ دُعَاتِهِ.

* فَإِنْ أَعْجَزَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَكَانَ الْعَبْدُ مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَوْهَبَةٌ السُّنَّةِ، وَمُعَادَاةُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ نَقَلَهُ إِلَى:

(١) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتَاوَى» (ج ١٠ ص ٩): (وَلِهَذَا قَالَ أَيْمَةُ الْإِسْلَامِ كُفَيَّانِ الثَّوْرِيِّ وَغَيْرِهِ، إِنَّ الْبِدْعَةَ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، لِأَنَّ الْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا وَالْمَعْصِيَةُ يُتَابُ مِنْهَا). اهـ
قُلْتُ: لِأَنَّ الْمُبْتَدِعَ يَحْسَبُ أَنَّ الْبِدْعَةَ عِبَادَةٌ، وَلِذَلِكَ لَا يُتُوبُ مِنْهَا.

الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ: مِنَ الشَّرِّ وَهِيَ الْكِبَائِرُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، فَهُوَ أَشَدُّ حَرِصًا عَلَى أَنْ يُوقِعَهُ فِيهَا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ عَالِمًا مَتَّبِعًا، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى ذَلِكَ لِيَنْفِرَ النَّاسُ عَنْهُ، ثُمَّ يُشِيَعُ ذُنُوبَهُ وَمَعَاصِيَهُ فِي النَّاسِ، وَيَسْتَنِيبُ مِنْهُمْ مَنْ يُشِيَعُهَا وَيُذِيَعُهَا تَدِيئًا وَتَقَرُّبًا - بَرَعِمِهِ - إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ نَائِبُ إِبْلِيسَ وَلَا يَشْعُرُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(١)، هَذَا إِذَا أَحْبَبُوا إِشَاعَتَهَا وَإِذَاعَتَهَا، فَكَيْفَ إِذَا تَوَلَّوْا هُمْ إِشَاعَتَهَا وَإِذَاعَتَهَا؟ لَا نَصِيحَةَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ طَاعَةَ لِإِبْلِيسَ وَنِيَابَةَ عَنْهُ؛ كُلُّ ذَلِكَ لِيَنْفِرَ النَّاسُ عَنْهُ وَعَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ.

* فَإِنْ عَجَزَ الشَّيْطَانُ عَنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ نَقَلَهُ إِلَى:

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: وَهِيَ الصَّغَائِرُ الَّتِي إِذَا اجْتَمَعَتْ فَرُبَّمَا أَهْلَكَتْ صَاحِبَهَا...
* فَإِنْ أَعْجَزَهُ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ نَقَلَهُ إِلَى:

الْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: وَهِيَ اسْتِغَالُهُ بِالْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا ثَوَابَ فِيهَا وَلَا عِقَابَ...
فَإِنْ أَعْجَزَهُ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَكَانَ حَافِظًا لِقَوْتِهِ شَحِيحًا بِهِ نَقَلَهُ إِلَى:
الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: وَهِيَ أَنْ يَشْغَلَهُ بِالْعَمَلِ الْمَفْضُولِ عَمَّا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ، لِيُزِيحَ عَنْهُ الْفَضِيلَةَ وَيُقَوِّتَهُ ثَوَابُ الْعَمَلِ الْفَاضِلِ، فَيَأْمُرُهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ الْمَفْضُولِ وَيَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَيُحَسِّنُهُ لَهُ إِذَا تَضَمَّنَ تَرَكَ مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَى مِنْهُ، وَقَلَّ مَنْ يَتَّبِعُهُ لِهَذَا مِنَ النَّاسِ...

(١) سُورَةُ النَّوْرِ، آيَةٌ: (١٩).

* وَهَذَا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِنُورٍ مِنَ اللَّهِ يُقَدِّفُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، يَكُونُ سَبَبَهُ تَجْرِيدَ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَشِدَّةَ عِنَايَتِهِ بِمَرَاتِبِ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَحَبَّهَا إِلَيْهِ، وَأَرْضَاهَا لَهُ، وَأَنْفَعَهَا لِلْعَبْدِ، وَأَعَمَّهَا نَصِيحَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِمْ.

* وَلَا يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ وَرَثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَنُوبِهِ فِي الْأُمَّةِ، وَخُلَفَائِهِ فِي الْأَرْضِ، وَأَكْثَرَ الْخَلْقِ مَحْجُوبُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَخْطُرُ ذَلِكَ بِقُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

* فَإِنْ أَعْجَزَهُ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ السَّتِّ... سُلِّطَ عَلَيْهِ حِزْبُهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى وَالتَّكْفِيرِ وَالتَّضْلِيلِ وَالتَّبْدِيعِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَقَصْدِ إِخْمَالِهِ وَإِطْفَائِهِ؛ لِيُشَوِّشَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَيَشْغَلَ بِحَرْبِهِ فِكْرَهُ، وَلِيَمْنَعَ النَّاسَ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ، فَيَبْقَى سَعْيُهُ فِي تَسْلِيطِ الْمُبْطِلِينَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَيْهِ، لَا يَفْتَرُ وَلَا يَنْبِي. فَحِينَئِذٍ يَلْبَسُ الْمُؤْمِنُ لِأَمَّةٍ: (يَعْنِي: دِرْعَ) الْحَرْبِ، وَلَا يَضَعُهَا عَنْهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَمَتَى وَضَعَهَا أُسِرَ أَوْ أُصِيبَ؛ فَلَا يَزَالُ فِي جِهَادٍ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ.

قُلْتُ: فَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ لِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ وَحِزْبِهِ الَّذِي لَا يَكُلُّ وَلَا يَمَلُّ مِنَ الْكَيْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَظُنُّ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ إِذَا أَغْلَقَ أَبْوَابَ قَلْبِهِ عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ اسْتَرَّاحَ وَأَمِنَ مِنْ كَيْدِهِ؛ فَهُوَ إِنْ عَجَزَ عَنِ الْكَيْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَرِيقِ الْوَسْوسَةِ إِلَى قَلْبِهِ، وَلَجَّ إِلَى قُلُوبِ غَيْرِهِ وَوَسَّوَسَ إِلَيْهِمْ بِإِيدَائِهِ وَالْكَيْدَ لَهُ وَمُحَارَبَتِهِ. فَيَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي جِهَادٍ دَائِمٍ، وَاسْتِعْدَادٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَحَذَرٍ شَدِيدٍ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَمَكْرِهِ.

* فَتَأَمَّلْ هَذَا الْفَصْلَ، وَتَدَبَّرْ مَوْقِعَهُ وَعَظِيمَ مَنْفَعَتِهِ، وَاجْعَلْهُ مِيزَانَكَ تَرِزُنْ بِهِ النَّاسَ، وَتَرِزُنْ بِهِ الْأَعْمَالَ؛ فَإِنَّهُ يُطَلِّعُكَ عَلَى حَقَائِقِ الْوُجُودِ وَمَرَاتِبِ الْخَلْقِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

* وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا التَّعْلِيقِ إِلَّا هَذَا الْفَصْلُ لَكَانَ نَافِعًا لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وَوَعَاهُ^(١).

قُلْتُ: بَلْ قَدْ سَلَطَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ مَنْ لَيْسُوا مِنْ حِزْبِهِ مِمَّنْ فِيهِمْ صَلاَحٌ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَابِ الْوَسْوَسَةِ بِتَبْرِئَةِ الذِّمَّةِ، فَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُغْضًا وَحَسَدًا، وَيُشْنَعُونَ عَلَيْهِمْ... وَيَرُونَ أَنَّ ذِمَّتَهُمْ لَا تَبْرَأُ حَتَّى يُعْلِنُوا ذَلِكَ لِلنَّاسِ، بَلْ قَدْ يَقَعُ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ مِنْ بَابِ الْحَسَدِ وَالْغَيْرَةِ، فَيُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ فَاقَهُمْ عِلْمًا وَصَلَاحًا وَاسْتِقَامَةً، وَإِنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ... بَلْ قَدْ يُلْصِقُونَ بِهِمْ وَبِدَعْوَتِهِمُ الْأَبَاطِيلَ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قَاعِدَةٌ نَافِعَةٌ:

* فِيمَا يَعْتَصِمُ بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَيَسْتَدْفِعُ بِهِ شَرَّهُ، وَيَحْتَرِزُ بِهِ مِنْهُ وَذَلِكَ

بِعَشْرَةِ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا: الْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ.

(١) انظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤٥٥)، وَالضَّوَاءُ الْمُنِيرَ عَلَى التَّفْسِيرِ لِلصَّالِحِيِّ (ج ٦ ص ٥٥١).

الدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

الْحِرْزُ الثَّانِي: قِرَاءَةُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: (الْفَلَقُ)، وَ(النَّاسُ)؛ فَإِنَّ لَهُمَا تَأْثِيرًا

عَجِيبًا فِي الْإِسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَدَفْعِهِ وَالتَّحَصُّنِ مِنْهُ.

الدَّلِيلُ: قَوْلُهُ ﷺ: (مَا تَعَوَّذَ النَّاسُ بِأَفْضَلٍ مِنْهُمَا)^(٢).

الْحِرْزُ الثَّلَاثُ: قِرَاءَةُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

الدَّلِيلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (وَكَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ

رَمَضَانَ، فَآتَى آتِ (الشَّيْطَانِ)... وَفِيهِ: (إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ؛

فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ)^(٣).

الْحِرْزُ الرَّابِعُ: قِرَاءَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

الدَّلِيلُ: قَوْلُهُ ﷺ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ الْبَقَرَةُ

لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ)^(٤).

الْحِرْزُ الْخَامِسُ: قِرَاءَةُ خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

الدَّلِيلُ: قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ» (١٤٥ ص ١٤٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) سُورَةُ فَصَّلَتْ آيَةَ (٣٦).

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٨ ص ٢٥١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْمُحَارَبِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٤ ص ٥٦٨).

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٢ ص ٤٣٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٥ ص ١٤٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْحِرْزُ السَّادِسُ: قِرَاءَةُ الدُّعَاءِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ،
وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - مِائَةً مَرَّةً).

الدَّلِيلُ: قَوْلُهُ ﷺ: (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةً مَرَّةً؛ كَانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ،
وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ...)^(١).

الْحِرْزُ السَّابِعُ: وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الْحُرُوزِ مِنَ الشَّيْطَانِ: كَثْرَةُ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛
مِنْ قِرَاءَةِ قُرْآنٍ، وَوُضُوءٍ، وَصَلَاةٍ، وَأَذْكَارٍ... فَمَا أَحْرَزَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ
بِمِثْلِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الْحِرْزُ الثَّامِنُ: الْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلَى ابْنِ
آدَمَ وَيَنَالُ مِنْهُ عَرَضُهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ... فَإِنَّ فُضُولَ النَّظَرِ يَدْعُو إِلَى الْفِتْنَةِ...

* فَمَبْدَأُ الْفِتْنَةِ مِنْ فُضُولِ النَّظَرِ، فَالنَّظَرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ.

* فَالْمَعَاصِي الْعِظَامُ هِيَ كُلُّهَا مِنْ فُضُولِ النَّظَرِ...

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفَجَاءَةِ فَقَالَ:

(أَصْرَفَ بَصْرَكَ)^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ

حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَرِزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ...)^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٢ ص ٢٠٤)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٥ ص ٥٤٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٦ ص ١٨٢)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٥ ص ٥٤٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٢ ص ١٢٨).

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ فُضُولَ النَّظْرِ أَصْلُ الْبَلَاءِ.

الْحِرْزُ التَّاسِعُ: إِمْسَاكُ فُضُولِ الْكَلَامِ.

أَمَّا فُضُولُ الْكَلَامِ فَإِنَّهَا تَفْتَحُ لِلْعَبْدِ أَبْوَابًا مِنَ الشَّرِّ كُلِّهَا مَدَاخِلَ لِلشَّيْطَانِ؛

فَإِمْسَاكُ فُضُولِ الْكَلَامِ يَسُدُّ عَنْهُ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا...

* وَأَكْثَرُ الْمَعَاصِي إِنَّمَا يُوَلِّدُهَا فُضُولُ الْكَلَامِ وَالنَّظْرِ، وَهَمَّا أَوْسَعُ مَدَاخِلِ

الشَّيْطَانِ.

وَالدَّلِيلُ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ عَلَيَّ مَنَاخِرِهِمْ فِي

النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيَّ ابْنَ آدَمَ

حَظَّهُ مِنَ الزَّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَرِزْنَا الْعَيْنِ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانِ النَّطْقُ...)^(٢).

الْحِرْزُ الْعَاشِرُ: الْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ الطَّعَامِ وَمُخَالَطَةِ النَّاسِ.

* وَأَمَّا فُضُولُ الطَّعَامِ فَهُوَ دَاعٍ إِلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ يُحَرِّكُ

الْجَوَارِحَ إِلَى الْمَعَاصِي، وَيُثْقِلُهَا عَنِ الطَّاعَاتِ، وَحَسْبُكَ بِهِدَيْنِ شَرًّا؛ فَكَمْ مِنْ

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٤ ص ١٧٠)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج ٨ ص ٥٢)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (٢١٥٢).

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٢ ص ٣٢٨)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي «سُنَنِهِ» (ج ٢ ص ٣٥٨)؛ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) تَقَدَّمَ تَحْرِيجُهُ.

مَعْصِيَةٍ جَلَبَهَا الشَّبَعُ وَفُضُولِ الطَّعَامِ... فَمَنْ وُقِيَ شَرَّ بَطْنِهِ فَقَدْ وُقِيَ شَرًّا عَظِيمًا...

* وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا غَفَلَ الْقَلْبُ عَنِ الذِّكْرِ سَاعَةً وَاحِدَةً خَيَّمْ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَوَعَدَهُ، وَمَنَاهُ، وَشَهَاهُ، وَهَامَ بِهِ فِي كُلِّ وَاوٍ.

* وَأَمَّا فَضُولُ الْمُخَالَطَةِ فَهِيَ الدَّاءُ الْعُضَالُ الْجَالِبُ لِكُلِّ شَرٍّ؛ وَكَمْ سَلَبَتْ الْمُخَالَطَةُ وَالْمُعَاشِرَةُ مِنْ نِعْمَةٍ، وَكَمْ زَرَعَتْ مِنْ عَدَاوَةٍ، وَكَمْ غَرَسَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْ حَزَازَاتٍ تَزُولُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَّاتُ وَهِيَ فِي الْقُلُوبِ لَا تَزُولُ؛ فَفِي فَضُولِ الْمُخَالَطَةِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمُخَالَطَةِ بِمُقَدَّارِ الْحَاجَةِ^(١).

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ تَرَكَ مُخَالَطَةَ كُلِّ مُخَالَفٍ حُمَى لِلرُّوحِ وَلِمَالِهِ وَعَرَضِهِ وَنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ... وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَمُخَالَطَةُ كُلِّ مُخَالَفٍ حُمَى لِلرُّوحِ؛ فَعَرَضِيَّةٌ وَلَا زِمَّةٌ، وَمَنْ نَكَدَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُتَلَى بِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، وَلَيْسَ لَهُ بُدٌّ مِنْ مُعَاشِرَتِهِ وَمُخَالَطَتِهِ؛ فَلْيُعَاشِرْهُ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ فَرْجًا وَمَخْرَجًا...

* وَمِنْ مُخَالَطَتِهِ الْهَلَكَةُ كُلُّهَا، وَمُخَالَطَتُهُ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ السَّمِّ، فَإِنْ اتَّفَقَ لِأَكْلِهِ تَرْيَاقٌ، وَإِلَّا فَأَحْسَنَ اللَّهُ فِيهِ الْعِزَاءَ. وَمَا أَكْثَرَ هَذَا الضَّرْبِ فِي النَّاسِ - لَا كَثَرَهُمْ

(١) انظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية» (ج ٥ ص ٤٦٤)

اللَّهُ- وَهُمْ أَهْلُ الْبِدْعِ وَالضَّلَالَةِ، الصَّادُونَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، الدَّاعُونَ إِلَى خِلَافِهَا، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا؛ فَيَجْعَلُونَ الْبِدْعَةَ سُنَّةً، وَالسُّنَّةَ بَدْعَةً، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا.

* إِنَّ جَرَدَتِ التَّوْحِيدَ بَيْنَهُمْ قَالُوا: تَنَقَّصْتَ جَنَابَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

* وَإِنْ جَرَدَتِ الْمُتَابَعَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: أَهْدَرْتَ الْأَيْمَةَ الْمُتَّبِعِينَ.

* وَإِنْ وَصَفْتَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ

وَلَا تَقْصِيرٍ قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُشَبَّهِينَ.

* وَإِنْ أَمَرْتَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتَ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ

وَرَسُولُهُ مِنَ الْمُنْكَرِ قَالُوا: أَنْتَ مِنَ الْمُقْتُونِينَ.

* وَإِنْ اتَّبَعْتَ السُّنَّةَ وَتَرَكْتَ مَا خَالَفَهَا قَالُوا: أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ الضَّالِّينَ.

* وَإِنْ انْقَطَعَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَخَلِّيتَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَيْفَةِ الدُّنْيَا قَالُوا: أَنْتَ مِنَ

الْمُلَبَّسِينَ.

* وَإِنْ تَرَكْتَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَاتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ فَأَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ،

وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

* فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ: التَّمَاسُّ مَرْضَاةَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ بِأَغْضَابِهِمْ،

وَأَنْ لَا تَشْتَغَلَ بِأَعْتَابِهِمْ وَلَا بِاسْتِعْتَابِهِمْ، وَلَا تُبَالِي بِذَمِّهِمْ وَلَا بِبُغْضِهِمْ؛ فَإِنَّهُ عَيْنُ

كَمَالِكَ؛ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَدْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ
فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي فَاضِلٌ^(١)
وَقَالَ آخِرُ:

وَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلٍ^(٢)
* فَمَنْ كَانَ بَوَّابَ قَلْبِهِ وَحَارِسَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَدَاخِلِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ
بَلَاءِ الْعَالَمِ - وَهِيَ فُضُولُ النَّظَرِ، وَالْكَلامِ، وَالطَّعَامِ، وَالْمُخَالَطَةِ - وَاسْتَعْمَلَ مَا
ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَسْبَابِ التَّسْعَةِ الَّتِي تُحْرِزُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَقَدْ أَخَذَ بِنَصِيئِهِ مِنَ
التَّوْفِيقِ، وَسَدَّ عَلَى نَفْسِهِ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ، وَأَنْعَمَرَ ظَاهِرَهُ
وَبَاطِنَهُ، وَيُوشِكُ أَنْ يُحْمَدَ عِنْدَ الْمَمَاتِ عَاقِبَةُ هَذَا الدَّوَاءِ؛ فَعِنْدَ الْمَمَاتِ يَحْمَدُ
الْقَوْمُ التَّقِيُّ، وَفِي الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى.
وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.
وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ



(١) انظر: «البيان لأخطاء بعض الكتاب» للشَّيخِ الْقُورَانِ (ص ١٩).

(٢) «الدِّيوان» لابن حَكِيم (ص ٧٠).

فَهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الرَّقْمُ الْمَوْضُوعُ	الصَّفْحَةُ
(١) الْمُقَدِّمَةُ.....	٥
(٢) سُورَةُ الْإِخْلَاصِ.....	١٠
(٣) سُورَةُ الْفَلَقِ.....	٢٠
(٤) سُورَةُ النَّاسِ.....	٣٠

